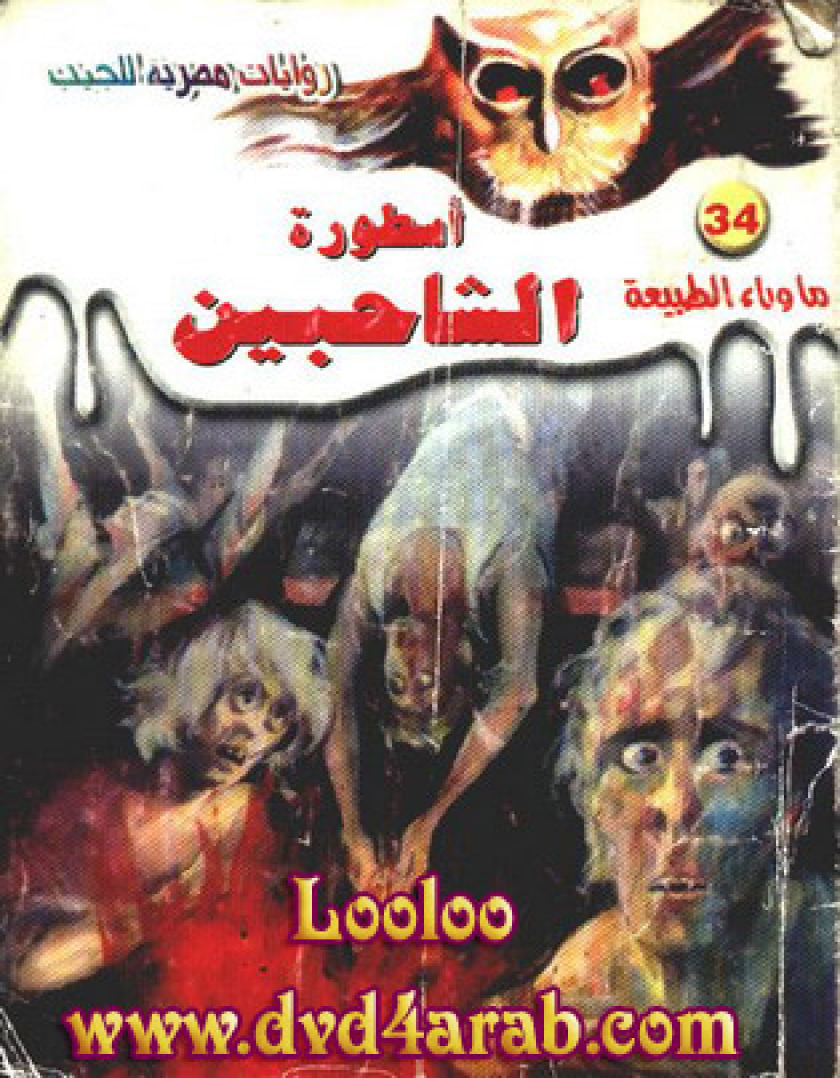


روايات مصرية للجيب
34
ما وراء الطبيعة
أسطورة
الشاحبين
Looloo
www.dvd4arab.com

# مقدمة

فى ضوء المشعل استطعت أن أرى الحقيقة ..

لقد رأيت كثيرًا من الجثث الممددة فى توابيت من الخشب الثمين ، والمبطنة بالحرير .. ورأيت الدم على شفاه بعض تلك الجثث .. ورأيت البشرة الشاحبة والنابين البارزين ..

رأيت ما يكفى من الجثث فى حياتى كى أعرف مصاص الدماء حين أراه .. ولا أستطيع أن أفخر بأننى غرست أوتادًا كثيرة فى صدور هؤلاء ، لكنى بالتأكيد أستطيع أن أفعل هذا بنجاح ..

لشدّ ما تبدّل د.( وينسلو ) !

إنه الآن ( غير ميت ) .. وهى كلمة لا تعنى أبدًا أنه حىّ .. لكى تفهم الفارق الباهت بين ( حىّ ) و( غير ميت ) يجب أن تكون مصاص دماء ..

وقال لى ( مايكل ) بصوت مبحوح :

ـ « هل تغرس الوتد ؟ »

نظرت له وابتلعت ريقى ..

كلما حسبت أننى أعرف كل شىء عن مصاصى الدماء ؛ كلما أدركت مبلغ سذاجتى ..

لقد كان تعاملى مع تلكم المخلوقات الطيفية سلسلة لا تنتهى من الأغلاط الفادحة ، ولا أقول الفاحشة .. حماقات لا أول لها ولا آخر ..

وتذكرت قصة الشاحبين ..

وارتجف الوتد فى يدى ..

أحقًا لم أحكها لكم بعد ؟

غريب !

إذن هلموا أحكها لكم بسرعة وقبل أن ينهض مصاص الدماء من غفوته .. وقبل أن ينادى المنادون يعلنون ملكوت الظلام ..

كانت القصة كما يلى ..

* * *



## تمهيد

**د. رفعت إسماعيل**

ساد تعبير ( مصاصى دماء هامر ) بين مشاهدى أفلام الرعب ، بسبب أفلام شركة ( هامر ) البريطانية التى قدمت لنا أهم أفلامهم .. وفيها يبدو مصاصو الدماء فاغرى الأفواه عن أنيابهم ، يرتدون عباءات سوداء مبطنة بالأحمر ، ولهم لون شاحب مخيف .. وكلهم يموتون عند رؤية ضوء الشمس والصلبان وعند شمّ رائحة الثوم ..

كل هذا جميل .. لكنه غير صحيح على الإطلاق !

* * *

( رومانيا ) من جديد !

تسألون لماذا ( رومانيا ) من جديد ؟

سؤال غريب وإجابة أغرب حتمًا .. أنا لم أر ( رومانيا ) منذ عشر سنوات تقريبًا .. ولى فيها صديق حميم هو ( جوستاف نيكولسكو ) الصحفى الرومانى الشاب شديد الذكاء والمرح .. كما أن لى فيها قصة رهيبة مع المذءوب .. إننى أحبها لأنها أول قصة حكيتها لكم ..

إن ( رومانيا ) بلد غريب تختلط فيه التأثيرات الأوروبية والتركية واليونانية ، وبه أساطير يشيب لهولها الولدان كما يقولون ..

إن ما نسميه نحن ( رومانيا ) لهو خليط من أقاليم عدة مثل : ( دانشيا ) ـ أو ( داخيا ) ـ و( والاشيا ) و( الكربات ) و( مولدافيا ) .. وبالطبع ( ترانسلفانيا ) الرهيبة التى صارت مزارًا سياحيًا للسيّاح الراغبين فى رؤية قصر ( فلاد المخوزق ) كما يسمّونه(*) ،

---

(*) ترجمة لاسم : Vlad the Empaler



وذلك لأنه كان يهوى التهام طعامه وهو ينعم برؤية أعدائه الأتراك فوق الخوازيق .. وقد أطلق عليه الأهالى اسم ( دراكيولا ) .. أى ( الشيطانى ) ..

ويقال إن ( دراكيولا ) مشتقة من لفظة ( دراجول ) أى ( التنين ) لأن هذا هو شعاره الإقطاعى ..

تقول الأساطير الرومانية إن ( جانب النجوم ) هو عالم مواز لنا ، يمرح فيه مصاصو الدماء والمذءوبون .. لكن هذا العالم ـ كأى شىء فى الواقع ـ مثقوب .. وهذا الثقب يسمح بمرور مصاص دماء أو مذءوب من آن لآخر ؟

وتسألون لماذا ( رومانيا ) من جديد ؟

لأننى أنا ( رفعت إسماعيل ) .. ومن المستحيل أن أظل بمنأى عن هذا الموضع أكثر من عشرة أعوام ..

★ ★ ★

كما يقولون فى القصص : بدأ كل شىء بخطاب وصلنى من ( جوستاف نيكولسكو ) ..

لم تنقطع المراسلات بيننا لحظة طيلة هذه السنين ، وقد صار ( جوستاف ) رئيسًا لتحرير مجلة نسائية متوسطة الشهرة ، ويبدو أن الرفيق ( شاوشيسكو ) كان راضيًا عنه ..

إن ( جوستاف ) يجيد التحايل وإخفاء آرائه السياسية المناهضة للشيوعية .. والدليل على ذكائه أنهم لم يعدموه بعد ..

كان الخطاب مليئًا بالمودة والظرف .. وإن لم ينس سؤاله السمج عما إذا كنت تزوجت بعد .. ألن ينسى الناس هذا الموضوع أبدًا ؟!

سأتجاهل بعض الفقرات الخاصة أو الخاصة جدًا .. أو التى لا أريد أن يعرفها سواى والرومانى .. ثم أقدم لكم هذه الفقرة

ـ « ( رفعت ) .. إن مجلتى عاكفة على تقديم سلسلة من التحقيقات عن الظواهر الميتافيزيقية .. ذلك الهراء الذى تهواه أنت ، والذى يروق للنساء كثيرًا .. فالنساء مولعات بالشموع التى تتحرك ، وشبح الكونتيسة الذى يعبر الردهة فى الواحدة صباحًا .. وكلما كان الأمر مريعًا كلما كان هذا أفضل .. »

« لدىّ حشد من الخيوط يمكن البدء بأى منها .. لكنى لم أرد أن أبدأ دون أن تكون معى ها هنا .. »

« إننى أذكر العمل الرائع الذى قمنا به ها هنا منذ أعوام فى ( كرايوفسكا ) مع المذءوب إياه .. وأعتقد أن هذا بعينه هو ما أريد أن تشاركنى فيه .. »



( قمت بحذف باقى الفقرة لأن بها مزاحًا سمجًا ) ..

« العرض هو البساطة ذاتها : ستصلك تذكرة طائرة ومعها ترتيب كامل للإقامة لمدة شهر .. »

« عندما تقبل سيأتى دور التفاصيل .. »

« فكرّ جيدًا .. إنها سياحة مجانية لا تُتاح لكثيرين .. أما أنا فسوف أربح رأيك الصائب وخبراتك .. ثم إن الرومان ينغمسون أكثر فى الأحداث إذا لم يكن بطلها رومانيًا .. فألحان عازف المزمار فى القرية المجاورة أعذب من ألحان عازفنا .. »

هذا التعبير الأخير هو طريقة رومانية لقول ( الشيخ البعيد سرّه باتع ) أو ( زامر الحىّ لا يطرب ) ..

كان العرض مغريًا ..

إن إجازتى دانية .. وأنا لم أسافر للخارج منذ زمن .. لم لا ؟ بالتأكيد أنا لا أهوى تربية العناكب فى دارى .. لكن منظر خيوط العنكبوت ، وطبقة الغبار على الأثاث لدى عودتى من الخارج ، لتبعثان حنينًا قويًا فى روحى .. وهكذا ..

بعد أسبوعين كنت جالسًا فى الطائرة أنتظر لحظة الهبوط فى مطار ( بوخارست ) ..

وأخذت شهيقًا عميقًا ، وقذفت بقطعة من اللادن فى فمى ، كى لا تنفجر أذناى ..

حان وقت الاسترخاء .. أو العمل الشبيه بالاسترخاء ..

وللمرة التريليون كنت ساذجًا .. ساذجًا ..

★ ★ ★

فى المطار تعرفته بصعوبة .. كان قد امتلأ ووضع العوينات وبدا أكثر أناقة .. ( رجل فى منتصف العمر تلوح عليه آثار النعمة ) كما يقولون فى الروايات .. وقد دفع ضريبة النجاح من شعر رأسه المتساقط ..

وحين تعرفته صحت معتذرًا وأنا ألثم خده كعادتنا وعادتهم :

ـ « ( جوستاف ) ! إنك تزداد بهاء .. لم أتعرفك لأنى حسبتك نهارًا مشمسًا ! »

وهو تعبير مسروق من ( مارك توين ) لكنه أسعده كثيرًا فرذ المجاملة :

ـ « وأنا لم أتعرفك لأنى حسبتك مصيبة .. »

ـ « هذا لطيف منك .. »

ـ « ألم تمت بعد ؟ »



ـ « كما أن الشيوعيين لم يشنقوك بعد .. إنها لمعجزة .. »

ودسّ يديه فى جيبى معطفه الثمين الذى تعلوه ياقة مبطنة بـ ( الاستراخان ) ـ أو هكذا أحسبه ـ وقال فى فخر :

ـ « الأمور على ما يُرام .. يبدو أننى أزداد فهمًا للحياة .. »

وخرجنا من المطار دون إجراءات جمركية تقريبًا .. ومع مزيد من الاحترام ، برغم أن كل مفتشى الجمارك فى الكون يكرهوننى بشكل خاص كأننى زعيم ( المافيا ) الهارب ، أو ملك تجارة ( الهيروين ) فى العالم ..

وفى سيارته الـ ( زاباروجيتس ) الفاخرة ، أشعل لنفسه سيجارًا عملاقًا وقال وهو يمسك المقود بيد واحدة :

ـ « ستقيم فى فندق ( بلويستى ) .. وهو فندق فاخر .. »

ـ « هذا يسرنى .. فقد سئمت الأكواخ الملأى بالبراغيث .. »

ثم إنه راح يسألنى عن آخر أخبارى ..

قلت له إن الأمور على ما يُرام .. فلم أك راغبًا فى أن أسكب فوق رأسه كل هذا الخليط من أوراق ( التاروت ) ، وكهنة التبت ، والدمى المسحورة ، والعوالم الموازية .. إلى آخر هذا الهراء .. »

ثم إننى سألته :

ـ « هلا تكلمنا فى الأعمال ؟ »

ـ « الأعمال ؟ آه ! دائمًا الأعمال .. انتظر حتى نصل إلى الفندق وهناك أعرض عليك ما لدىّ من خواطر .. »

* * *

جلس على الأريكة الوثيرة فى حجرتى ، ومدّ يده إلى جيبه ليخرج بعض الأوراق .. وكما توقعت ، نزع عويناته ليبعد الأوراق بعيدًا إلى أبعد نقطة من مجال بصره .. إنه قد تقدم فى العمر وبدأ يصاب بطول النظر .. منتصف العمر .. سنّ النجاح الاجتماعى وطول النظر وتضخم البروستاتا والنوبات القلبية .. »

قال لى وهو يتأمل الأوراق :

ـ « هى ذى بعض الخواطر كتبتها لك .. لن أثقل عليك ، فأنت مرهق بعد رحلة الطائرة .. لذا سأتركها لك ..



على أن تتصل بى حين تشعر بأنك تميل إلى موضوع معين .. »

ونهض ليضع قبعته على رأسه معلنًا انتهاء اللقاء ..

ما إن انصرف حتى طوحت بفردتى حذائى ، وانتزعت تلك المشنقة التى يسمونها ربطة العنق ، وخلعت سترتى ثم ارتميت فى الفراش كجثة غارقة ..

وكان الفضول أقوى منى ، فمددت يدى إلى الأوراق أتصفحها بسرعة .. وكانت ـ حقًا ـ حفنة من الخواطر :

١ ـ المقبرة المفتوحة دائمًا فى مدفن ( كلوج ) ..

٢ ـ فى ( ماماىا ) على البحر الأسود .. يسمعون الغناء ليلاً .. يبدو أنها حكاية شبيهة بـ ( لورالاى ) لدى الألمان .. ( عرائس بحر ؟ ) .

٣ ـ شاب له القدرة على السفر عبر الأزمان ( أو هكذا يزعم ) .. يقول إنه كان محاربًا من الفرنجة .. وكان غازيًا تركيًا .. المشكلة هى أنه يملك أدلة قوية حقًا ..

٤ ـ عالم يزعم أنه يعرف مكان تابوت العهد المذكور فى التوراة .. لكنه لن يفصح عنه إلا مقابل

بضعة ملايين من ( اللايات ) .. لا أحد يعبأ به لكنه موضوع مثير حقًا ..

٥ ـ إشاعات عن فرقة من النازيين ما زالت حية بعد الحرب .. وتجوّل بين القرى ليلاً .. يقال إنهم دفنوا في أثناء غارة للحلفاء وأن ما نراه هو أشباحهم ..

٦ ـ صيدلى فى ( بوكوفينا ) يزعم أن القرية كلها تثير ريبته .. لكنه لا يستطيع إثبات كلامه ..

٧ ـ معتوه فى ( كونستانا ) يتصل بشكل منتظم بسكان ( زحل ) .. وهم كالعادة ينوون غزو الأرض .. كل هذا جميل ، لكن عنده سبيكة من معدن يقسم الجيولوجيون بقبور أمهاتهم إنه غير أرضى ..

كانت كل نقطة مكتوبة فى ورقة بعينها بخطّ جميل .. وقد أثار كل هذا شغفى .. لكن سنّى لا تسمح لى بالبحث عن الأفكار المفزعة أو التى توحى بمتاعب قادمة لا ريب فيها ..

مثلاً بالنسبة للقبر المفتوح .. أنا لا أحب القبور المفتوحة كثيرًا كما تعلمون .. أما عن ( لورالاى ) فأعتقد أنها كلام فارغ كالعادة ..

المسافر عبر الأزمان يذكرنى بـ( هن ـ تشو ـ كان ) ..



وأعتقد أن كاهنًا أخيرًا واحدًا يكفى المرء طيلة حياته ..

موضوع ( تابوت العهد ) محبب لدى اليهود ، وأوشك أن أشمّ رائحة عبرانية واضحة فى الموضوع .. رائحة تجعلنى أتراجع ..

النازيون مرعبون بما يكفى وهم أحياء .. فكيف بأشباحهم ؟

أما معتوه ( كونستانا ) فمن المؤكد أنه معتوه ..

إذن يبقى أمامنا أخونا الصيدلى الرومانى المرتاب ..

طبعًا لن يسفر الأمر إلا عن حالة ( بارانويا ) متقدمة ، من طراز ( إنهم يكرهوننى ) .. وهذا يناسبنى ..

وأخيرًا غلبنى النعاس فنمت حيث أنا ، والأوراق فى يدى .. وحين صحوت كان ضوء النهار يفعم الحجرة ..

طلبت رقم الهاتف الذى أعطانيه ( جوستاف ) .. فسمعت صوت سكرتيرة تسأل بالرومانية عن شىء ما .. غالبًا تسأل من أنا ؟

وأخيرًا سمعت صوت ( جوستاف ) المرح يسألنى :

ـ « هيه ؟ علام استقررت ؟ »

قلت وأنا أتثاءب :

ـ « هاااه .. على الصيدلى المرتاب .. »

ـ « غريب ! حسبتك متحمسًا لفرقة النازيين الجوّالة .. »

ـ « لم تعد صحتى تتحمل الأشباح النازية يا ( جوستاف ) .. »

ضحك طويلاً ضحكته المجلجلة الرنانة .. ثم قال :

ـ « لكن .. أعد حاجياتك لأننا راحلان إلى ( بوكوفينا ) .. »

ـ « هل ستصحبنى ؟ ظننت مشغولياتك .. »

ـ « إن إجازتى تبدأ بعد يومين .. وأعتقد أن ( بوكوفينا ) مكان مناسب لقضاء وقت طيب .. ومنها إلى قرية ( هالماجيو ) .. »

ـ « والتفاصيل ؟ »

ـ « ستعرف كل شىء فى الطريق .. كل شىء .. » .

* * *



# حكاية الصيدلى المرتاب

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال الصيدلى ( يوليان بودسكو ) :

بالتأكيد توجد أمور غريبة فى ( هالماجيو ) ..

توجد أشياء معينة من التى لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلاً ، حينما تتأكد من أن الأطفال قد ناموا ، وحينما تستوثق من أن أبوابك موصدة ، وأن الكلب لا ينبح فى الجرن لأنه يشعر بشىء غريب ..

أمس صارحت القس الأب ( كونستانتين ) بهواجسى ، فهزّ رأسه الأشيب عدة مرات ، ولم ينصحنى سوى بإغلاق بابى ليلاً .. والصلاة ..

وهأنذا أوصدت بابى .. وأحضرت الكتاب المقدس ورحت أقرأ منه ، داعيًا الرب أن يأتى الصباح سريعًا ..

★ ★ ★

ربما بدأ كل شىء فى ( مايو ) الماضى ..

ربما بدأ قبل هذا لكننى لست واثقًا من شىء .

إن ( الكسندر ) صبى ذكى لكنه شيطان صغير ، من النوع الذى لا يكف عن جذب ذيول القطط وتهشيم زجاج الجيران ..



إنه أشقر الشعر له وجه ملوث بالحلوى والطين .. وله سنان ناقصتان تجعلانه يبدو كشيطان زنيم ..

لكن القرية كلها كانت تحب ( الكسندر ) .. حتى وهم يشكون لأبيه .. ( مازورسكو ) تهشيمه لزجاج النافذة ، أو قذفه أبناءهم بالوحل ، أو سرقة تفاحة ، أو ثقب إطار الدراجة التى تركها أحدهم أمام بابه .. حتى وهم يشكون لأبيه كانوا يحبونه ..

وفى صباح ( مايو ) المذكور قابلته وهو عائد من القرية .. جاء متجرى ليطلب بعض حلوى النعناع ..

- « كل هذه الحلوى ستفسد أسنانك يا ( ألكسندر ) .. ولسوف تغدو بلا أسنان كالعلقة .. »

قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعدّ أقراص النعناع ، ثم أضعها له فى قرطاس ورقى كبير ..

قال لى وهو يمتصّ قرصه الأول :

- « النعناع لا يتلف الأسنان .. هل لديك ماء بارد ؟ »

فالصباح كما قلت لك صباح من شهر ( مايو ) .. حيث القيظ يجثم على الأنفاس ، والطبيعة كلها تبدو ككلب لاهث يرقد فى الظل مخرجًا لسانه فى استرخام .. أحضرت له كوبًا من الماء من الدورق الذى يسبح

فيه مكعبان من الثلج - ما أحلى الماء البارد بعد حلوى النعناع ! سمعته يشهق من النشوة الحارقة التى غمرت حلقه .. وقال فى صوت مبحوح :

- « هاااااآه ! ما أجمله ! »

ووضع الكوب على ( الكاونتر ) أمامى ..

وتوقعت أن ينصرف .. لكنه بدا حائرًا قليلاً .. كان يريد قول شيء لكنه لا يجد الكلمات المناسبة ..

- « هل ثمة ما تريد قوله ؟ »

راح يرمق الأرفف التى تعج بالأدوية .. ثم سألنى :

- « هل أنت تفهم فى جميع الأمراض ؟ »

هززت كتفى فى عدم اكتراث :

- « لست طبيبًا .. لكنى أعرف أشياء كثيرة .. »

عاد يسألنى وهو يهرب بعينيه من نظراتى :

- « ما معنى أن يكون الواحد شاحبًا ؟ »

- « أشياء كثيرة .. مثلاً حين تهشم الأكواب الملونة التى تعتزّ بها أمك تصير شاحبًا .. حين تنزف دمًا كثيرًا تصير شاحبًا .. حين تصاب بالأنيميا تصير شاحبًا .. »

- « ما هى ( الأمنيا ) ؟ »





قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعدّ أقراص النعناع ، ثم أضعها له فى قرطاس ورقى كبير ..

هنا تذكرت أن أباه جعله يترك المدرسة منذ زمن كى يعاونه فى متجرة .. لم أجد تعريفًا مناسبًا لـ ( الأنيميا ) فقلت له :

- « هى فقر الدم .. حين يكون دمك قليلاً .. »

عاد يسألنى :

- « وهل عندك علاج لهذه ( الأمنيا ) ؟ »

- « هل تريد علاج أحد معين ؟ »

هزّ رأسه .. ثم عاد يسألنى بإلحاح :

- « هل عندك علاج معين لها ؟ »

مددت يدى إلى الرف فتناولت علبة من أقراص الحديد ، ووضعتها أمامه .. فتأملها فى شغف .. لكنى لم أدعه يأخذها .. وقلت :

- « لن تأخذها ما لم تقل لمن ؟ »

ابتلع ريقه للحظة .. ثم قال بعد تردد :

- « لأبى .. »

- « أبوك شاحب الوجه ؟ »

- « نعم .. ويخيفنى كثيرًا .. »

هنا تذكرت أننى لم أر الأب ( مازورسكو ) منذ أسابيع .. إن متجره مغلق لكنه قد عوّدنا على ألا نقلق حين نرى شيئًا كهذا ..



فهو سكير .. ونوبات سكره تتكرر كل أربعة أشهر أو ثلاثة .. عندها يغرق فى نوبة من البكاء والضحك ، ثم ينهال على امرأته ضربًا ويركل ابنه مرتين .. ثم يظل فى الفراش لمدة أسبوع ..

بعدها يعود كل شىء إلى حالته الأصلية ..

- « يخيفك ؟ لا أفهم .. »

بدت الحيرة فى عينيه الخضراوين .. وقال بارتباك ( كأنه لم يرد أن يتكلم بهذه الكثرة ) :

- « نعم .. يجلس وحيدًا فى غرفة مقفلة .. والكلام كله من وراء الباب .. لكنى رأيت وجهه .. وكان شاحبًا .. شاحبًا كليمونة .. »

- « وأمك .. ألم تسألها ؟ »

- « هى أيضًا لا تفهم .. تقول إن أبى مريض جدًا .. »

- « ودكتور ( ميخائيل ) .. ألم يزر البيت ؟ »

- « نعم .. فأبى يرفض أن يراه الأطباء .. »

- « وهل يخرج أبوك أحيانًا ؟ »

- « لا .. إنه جالس فى هذه الحجرة طيلة الوقت .. لا يستحم ولا يبدل ثيابه حتى صارت رائحة الحجرة

شنيعة .. أمى تحضر له الطعام .. ووعاء يقضى فيه حاجته .. وتأخذ الوعاء صباح كل يوم لتفرغه وتنظفه .. »

شعرت بالهلع .. من المستحيل أن يختلق الصبى قصة كهذه .. مستحيل .. إن شيئًا ليس على ما يرام يحدث فى هذا البيت .

ماذا أصاب التاجر الرومانى البسيط ؟

سمعت أن هذه الأشياء تحدث لمرضى الاكتئاب .. كما أنها تحدث لمرضى الجذام الذين لا يحبون أن يراهم الناس يتآكلون .. كما أن مرضى الضمور Consumption كانوا يفعلون شيئًا كهذا فيما مضى .. قبل أن نعرف أن الـ Consumption هو الدرن .. ونعرف أن له علاجًا ..

قلت للصغير فى حماس :

ـ « سآتى معك الآن لنرى أباك .. »

ـ « لن يحبَّ هذا يا دكتور .. فهو .. »

ـ « لا مجال للمناقشة .. لحظة حتى أغلق المتجر .. »

* * *

كان المشوار مرهقًا فى الحرّ .. فأنا بدين كخنزير لا أملك أية لياقة بدنية .. وقد راح العرق يغمر جسدى ويبلل حاجبىَّ وينساب على عينىَّ حارقًا لاذعًا ..



إن دار ( ألكسندر ) جميلة حقًا .. ويقال إن الأب بناها من أرباح القمار فى شبابه .. ويبدو ـ إن كان هذا صوابًا ـ أن دارًا ساحرة كهذه يمكن الحصول عليها من شىء كريه كالقمار ..

قرعنا الباب ففتحت لنا ( ماريا ) الباب ..

وهى ـ فى الخمسين من عمرها ـ تبدو كأنها فى الثمانين .. كنا نتصور أن فرصتها للإنجاب قد فاتت ، لكنها فاجأتنا بصبى أشقر جميل هو ( ألكسندر ) ..

ما إن رأتنى حتى اتسعت عيناها ذعرًا .. لقد فهمت سر مجيئى .. فقلت لها :

ـ « هل ( فيتور ) فى غرفته ؟ »

ابتلعت ريقها ولم تقل شيئًا .. فقط أفسحت لى طريق الدخول وهى ترمق الصبى بنظرة لا تحتاج إلى مترجم .. نظرة من نوع ( هكذا ـ إذن ـ أيها ـ القرد ـ الصغير ) ..

ودخلت إلى الدار .

حقًا كان الصبى محقًا .. إن رائحة البيت لا تُطاق .. هى ذى غرفة موصدة .. المرأة تقف جوارى وترمقنى بوجهها المجعّد الشبيه بتفاحة ذابلة ، وتقول :

ـ « هو هنا .. حاول ألا تلحّ على رؤيته .. إنه ضيق الخلق .. »

مددت يدًا مترددة وقرعت الباب ..

فسمعت من يزمجر بالداخل ..

قلت فى صوت مبحوح :

ـ « ( فيتور ) .. هل ثمة مشكلة ؟ »

عاد الصوت يزمجر :

ـ « من المتكلم ؟ »

ـ « أنا الصيدلى .. أنا ( بودسكو ) .. صديقك .. »

قال بصوت كخوار الثور :

ـ « انصرف يا ( بوليان ) .. أنا لن أفتح الباب .. »

ـ « هل ثمة مشكلة ؟ »

ـ « قلت لك انصرف .. »

نظرت للمرأة .. ولم أحتج إلى سؤالها .. إن الباب موصد من الداخل بالتأكيد ، وهو لا يفتحه إلا وقت الطعام ..

إنه يمارس كل ما يفعله المسجون الانفرادى ولكن بكامل إرادته .. قرعت الباب مرتين ثم أدركت أنه لن يفتحه أبدًا ..



نظرت للمرأة فى حيرة وسألتها :

ـ « لماذا لم تخبرى أحدًا ؟ »

ـ « إننى أهاب جبروته .. فهو يعد بالتهام حنجرتى لو فعلت .. »

ـ « ليس التهام الحنجرة متاحًا لكل من يريد .. لماذا لم تبلغى الشرطة أو تستعينى بجارين قويين يهشمان الباب ؟ »

ـ « لا أريد أن يؤذيه أحد .. »

تنهدت فى صبر .. وقلت :

ـ « الأمر الآن يختلف .. فهو يعرف أننى أعرف .. »

ـ « ومعنى ذلك ؟ »

ـ « معناه أنه سيلتهم حنجرتك إذا كان صادقًا ! »

بدا عليها الرعب كأنما تشعر بالفعل بأسنان زوجها الغليظة على حنجرتها .. وقالت فى ارتباك :

ـ « والعمل ؟ »

ـ « علينا اقتحام الباب ومعرفة ما دهاه .. »

ولم أتركها تفكر كثيرًا ..

هرعت خارج الدار ، وطرقت باب الجيران طالبًا عون ( تيبور ) عامل البناء الذى يملك أكبر ذراعين

رأيتهما فى حياتى .. وكان غوريللا مشعرة تحب هذه الفرص التى تتيح إظهار القوة .. إن عملية تهشيم باب تناسب تمامًا فكرته عن ( الاستمتاع بالوقت ) ..

وجاء من داره جريًا وهو يبصق فى كفيه استعدادًا ..

سألته وأنا ألهث :

ـ « ألم يثر اختفاء الرجل ريبتكم ؟ »

ـ « بلى .. لكننا نعرف نوبات سكره .. واعتدنا أن نتجاهلها .. »

ودخل الدار فتفحص الباب بعين خبيرة ..

وللمرة الأخيرة أنذر التاجر بصوت غليظ :

ـ « ( فيتور ) .. نحن سنهشم الباب ما لم تفتحه .. »

ـ « اذهب إلى جهنم ! »

كانت هذه العبارة كافية لإثارة حماسه ..

تراجع للوراء واندفع بكتفه إلى الباب .. وكانت الدفعة كافية لأنى سمعت صوت المزلاج يتهشم .. ثم انفتح الباب ..

كانت الحجرة مظلمة تمامًا .. لكنى تعرفت هيكل ( فيتور ) الجالس أمام المنضدة .. وشممت الرائحة العطنة إياها ..



وفى اللحظة التالية كان ( تيبور ) يمسك بالتاجر من قفاه بينما هذا الأخير يصرخ فى جنون محاولًا التملص ..

لحظة عرفت ورأيت فيها أشياء كثيرة ..

ربما كان أول ما رأيت هو الشىء الأهم ..

لقد كان يمسك فى يده فأرًا ميتًا ..

* * *

ربما كان اول ما رأيت هو الشيء الأهم .. لقد كان يمسك في يده فأرًا ميتًا ..

## ـ ٢ ـ

ليس الأمر متعلقًا بالجذام أو الدرن ..

إنه متعلق بالجنون .. الجنون المريع الذى يدفع إنسانًا لالتهام فأر دون ذرة اشمئزاز ..

ولقد تمكنا من إخراج ( فيتور ) إلى النور وسط صراخه وهياجه .. الحق أنه كان شاحبًا كالموتى .. لم أر قط هذا الشحوب على وجه إنسان حىّ ..

وتجمع الجيران ليروا ما يحدث .. ووقف ( ألكسندر ) يرمق المشهد دامع العينين ، وقد عاد مجرد طفل مذعور .

وبصعوبة تمكنا من اقتياد التاجر الثائر إلى عيادة د.( ميخائيل ) الذى تهشم له طبقان ولوحا زجاج ، وأصابه الذعر فأعلن أنه غير قادر على السيطرة على هذا الوحش ..

ـ « خذوه إلى المخفر .. إلى الزنزانة وسأفحصه هناك ! »

وتمكنا من اقتياد التاجر المذعور ـ مرة أخرى ـ إلى المخفر .. كانت هناك زنزانة لا بأس بها وضعناه

فيها .. لكن - فى هياجه المسعور - راح يضرب القضبان برأسه ، ويقول كلامًا مختلطًا لا نعرف كنهه .

لم نجد حلاً سوى اقتحام الزنزانة من جديد ، وتقييده بمعاونة ( تيبور ) ، حتى استطاع د. ( ميخائيل ) أن يدنو منه .. وهو يرتجف ذعرًا كمن يدنو من أسد .. وأفرغ محقنًا مليئًا بالفاليوم فى وريده ..

وأخيرًا أطلق المريض شهقة طويلة ، ثم غاب فى سبات هادئ .. واستطاع الطبيب أن يدنو أكثر .. وأن يتحسس نبضه ويفتح جفنيه .. وأعلن ما توصل إليه :

- « إنه مريض جدًا .. »

فتعالت الأصوات تمتدح عبقريته ، وطالبنا بالمزيد فقال :

- « إنها حالة ( أنيميا ) متقدمة .. يبدو أنها أثرت على توازنه العقلى والنفسى .. »

- « والحلّ ؟ »

- « لا بد من نقل بعض الدم له .. »

وتمّ الأمر بسرعة .. أحضر الطبيب بعض الكواشف الطبية وميكروسكوبًا ، وأجرى فحصًا لدمائنا فكانت دماء



( تيبور ) العملاق هى الصالحة .. رباه ! لكم أبدى هذا البطل ذعرًا وهلعًا كأننا نريد استنزاف دمه حتى الموت .. وأقنعناه مرارًا بأن هذا لن يؤذيه .. لكنه راح يولول كالنساء الثكالى وهو يرى الدم يتسرب من جسده ليملأ الزجاجة .

وأخيرًا تم إعطاء الدم للتاجر المريض .. صحيح أنه غير كاف لكنه جعل شفتيه تبدوان أكثر احمرارًا من الورق ..

وعدت لدارى راضيًا فتناولت غذائى ، ثم عدت لمتجر الأدوية كى أفتحه ، وأمارس عملى من جديد ..

وفى المساء توفى التاجر ( مازورسكو ) ..

★ ★ ★

وقفت ( إيرينا كالسكا ) فى متجرى ، وراحت تتأمل قوارير الدواء فى فضول .. ثم سألتنى :

- « أريد علاجًا لفقر الدم الذى أعانيه .. »

تأملت شفتيها الحمراوين ، وخديها الشبيهين بتفاحتين ، وقلت :

- « أنت مصابة بفقر دم ؟ »

- « نعم .. أظن هذا .. »

ـ « لا أعتقد .. »

وهززت كتفى وعدت إلى ميزانى الحساس أزن به تركيبة السعال التى أصنعها ..

قالت فى إصرار :

ـ « لكنى أريد علاجًا لفقر الدم .. ليس من شأنك أن تمنعني .. »

وأنا أمقت من يعاملنى كبدّال ينحصر عمله فى أخذ النقود ، ولفّ السجق في ورقة ، وتقديمه للزبون .. إن لى رأيًا ينبغي احترامه ..

قلت لها فى جفاء :

« لو كنتُ نصابًا لأعطيتك ما تريدين .. »

ثم خطرت لى فكرة لا بأس بها فقلت :

ـ « هذا العلاج ليس لك طبعًا .. »

احمرّ وجهها قليلاً فعرفت أننى محقّ .. فأردفت :

ـ « ربما هو لوالدتك ؟ »

ـ « نعم .. لكنى لا أريد ذيوع السرّ .. »

ـ « هل هى تتصرف بغرابة ؟ »

إزداد وجهها احمرارًا كأنما يعلن لى أنها لا تعانى ( الأنيميا ) بشكل نهائى .. وقالت :



ـ « بغرابة ؟ لا .. بل تتصرف بشذوذ إذا أردت الدقة ! »

ـ « شذوذ ؟ كأن تخنق القطط وتأكل الزهور ؟ »

ـ « بل أسوأ .. هى لا تفعل شيئًا من أى نوع ! »

بدا لى كل هذا مألوفًا ..

لكنى فى هذه المرة لم أتحمس كثيرًا لزيارة المرأة .. ناولت الفتاةُ علبة الحبوب وتقاضيت الثمن فى صمت .. ليتنى اهتممت بالأمر أكثر !

★ ★ ★

قال ( بوريس ) وهو يداعب شاربه الكثّ ، ويتلذذ بخشونة لحيته على ظهر يده :

ـ « دكتور .. ما معنى ( أنيميا ) ؟ »

قلت له وأنا أتأمل وجهه النابض بالصحة :

ـ « معناها : أى شىء سوى ما أنت عليه .. »

ضحك كاشفًا عن أسنانه المغطاة بالتبغ ..

كان راعيًا قوى البنيان له رائحة الضأن ، لكنه كان يروق للنساء باعتباره الرجل الذى هو مائة بالمائة رجل .. إن فى كل رجل جزءًا من الأنوثة ؛ لهذا يُعتبر ( بوريس ) حالة فذّة غير معتادة ..

قال لى :

ـ « أنا لست معتلاً .. أريد هذا الدواء لأخى .. »

ـ « هل هو شاحب ؟ »

ـ « طبعًا .. »

ـ « وغريب الأطوار ؟ »

ـ « بحق ( مريم ) العذراء ! أنت تعرف كل شىء ! »

ناولته علبة من أقراص الحديد .. يبدو أن المخزون لدىّ لن يكفى كل هؤلاء الشاحبين »

ثم إننى غادرت المتجر قاصدًا دار د. ( ميخائيل ) .

كان النطاسى العجوز هناك عاكفًا على فتح خراج فى قدم فلاحة .. والمرأة تصرخ كأنهم ينتزعون عينها بمطواة غير حادة ..

انتظرت حتى هدأ كل هذا الصراخ ، وانصرفت المرأة وهى تطلق السباب واللعنات على الطب والأطباء ..

قال د. ( ميخائيل ) وهو يغسل يديه :

ـ « كلهم نفس الشىء .. يجوب الواحد منهم الدنيا يعيث فسادًا ، ويرتكب كل الموبقات .. ثم يصيبه خراج فى قدمه فيملأ الكون صراخًا ، كأن قدمه هى



ميزان الأكوان وحقيقة الوجود .. وبعد هذا يدفع لى حفنة ( لايات ) كأنما ينتزعها من قلب أطفاله .. »

ثم تأمل مال المرأة فى اشمئزاز .

ـ « إن نقودهم خالية من البركة .. لأنهم يمنحونها مصحوبة باللعنات والدعاء على أطفالى بالموت .. »

قلت له وأنا أجفف العرق الذى غمر عنقى :

ـ « هل تصادفك حالات فقر دم كثيرة هذه الأيام ؟ »

فكر قليلاً .. ثم قال :

ـ « ليس أكثر من المعتاد .. إن طعام هؤلاء الفلاحين لا يغنى ولا ... »

ـ « إذن ترى حالات مثل ( مازورسكو ) ؟ »

ـ « ليس كثيرًا كما قلت .. »

هنا خطر لى أن أحدًا لا يبلغه ؛ لأن المرضى جميعًا يصرّون على عدم إطلاع الأطباء ..

لقد فعلها ( مازورسكو ) وهدد امرأته بالتهام حنجرتها ، وهو ما أشكره على ما كان من موته اللطيف قبل أن يفعلها ..

لكن الآخرين فعلوا الشىء ذاته على الأرجح ..

عدت أسأل د. ( ميخائيل ) ـ وأنا واثق أن معلوماته

فى الطب لا تفوق معلومات أى ترزى ـ عن احتمال وجود حالات فقر دم لها شكل وبائى ..

مط شفتيه فى تفكير .. ثم قال :

ـ « لا أدرى .. ربما مع الملاريا .. أو وجود تسمم رصاص .. أو عند وجود مصدر إشعاع نووى .. »

وهزّ رأسه مستبعدًا :

ـ « لكن لا شىء من هذا فى ( هالماجيو ) .. »

ـ « ألا ترى أن من واجبك إخطار مكتب الصحة ؟ »

ـ « لا أظن .. »

قالها فى ثبات وعناد ..

ليس من المستحب أن تبلغ السلطات عن وجود متاعب فى نطاق عملك .. لأن أول ما سيحدث هو أن يقصوك عن منصبك ، ولأن بداية الخلاص من المتاعب هى الخلاص منك ..

إن ( شاوشيسكو ) يحب عمله حقًا ..

* * *



## ـ ٣ ـ

قد يحدث كل شىء فى ( رومانيا ) ..

صحيح أن ( بوكوفينا ) لم تظلَ قط رومانية .. بل هى تتأرجح طيلة الوقت بين ( رومانيا ) و( المجر ) .. لكن قواعد ( رومانيا ) الصارمة تسرى عليها ..

فى ( رومانيا ) فقط يمكن أن يكثر الشاحبون ..

فى ( رومانيا ) فقط يحدث هذا بلا تفسير ..

فى ( رومانيا ) فقط يبدأ الكلام همسًا ثم بصوت عال ..

الكل يعرف أن شيئًا ليس على ما يرام يحدث ..

لكن ما هو ؟

* * *

وفى أمسية مقمرة من شهر ( يونيو ) ؛ أمسية من النوع الذى يخرج فيه العشاق إلى غابة الصنوبر المحيطة بالقرية ؛ أمسية من النوع الذى يندر فيه أن ترى جثثًا مشوهة ..

أمسية كهذه هى التى وجدوا فيها جثة ( إيرينا لاسكى ) فى الغابة .. كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب ..



كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب .. ولم تكن ثمة آثار عنف فى جسدها ..

ولم تكن ثمة آثار عنف فى جسدها ، إذا استثنينا التمزيق فى عنقها والذى حدث بأنياب حادة .. وكان رأى الضابط بليغًا جدًا :

- « هذه الأشياء تحدث .. »

ثم أضاف يفسر وجهة نظره :

- « إن هذه الذئاب الشهباء لا ترحم .. »

واقتنعنا برأيه .. صحيح أن هذا لم يحدث فى قريتنا قط لكنه ممكن ..

لابد من مرة أولى دائمًا ..

لكن د. ( ميخائيل ) جاءنى فى المساء وأدخلته زوجتى إلى مكتبى الذى هو غرفة معيشتى كذلك ..

كان النطاسى العجوز شاحب الوجه ، وجلس يفرك يديه بعض الوقت ويجفف العرق على جبهته .. ثم قال :

- « يبدو أنك محق يا ( يوليان ) .. الأمور على غير ما يُرام فى هذه القرية .. »

قدمت له كأسًا من النبيذ كان بحاجة إليه .. وسألته :

- « ما الذى جعلك ترتاب ؟ »

جرع الكأس مرة واحدة ، وقال لاهثًا :

- « تلك الفتاة .. ( لاسكى ) .. لم يكن فى عروقها نقطة دم واحدة ! »

نظرت له فى حيرة ولم أقل شيئاً ..

قال ضاغطاً على حروفه :

- « هل تفهم ؟ ولا نقطة دم .. لقد أفرغ الذئب دمها كله .. »

- « لكنكم لم تجدوا دماء حول جثتها .. »

- « هذا هو ما أرمى إليه .. لقد تم امتصاص دمها كله .. »

- « إنك تتحدث عن ... »

وضع الكأس على المنضدة ، وقال :

- « نعم .. نحن فى ( رومانيا ) .. وأنت تعرف ما أريد قوله .. »

- « لكن هذا هراء .. أساطير فلاحين .. »

قال فى هدوء :

- « لكنها تفسر كل شىء .. وأعتقد أن من واجبنا أن نتخذ الأساليب المعهودة فى الأسطورة : الوتد - قطع الرأس .. ليس مفترضاً أن نترك جثتى الفتاة و( مازورسكو ) دون احتياطات .. »



- « يا للهول ! تريد هذا التمثيل البشع بالجثث ؟ »

أحس أنه قد تمادى قليلاً .. فقال متداركاً :

- « ربما حشو الفم بالثوم وقطعتى الفضة على العينين .. يقولون إن هذا أسلوب فعال .. »

- « وهل تعتقد أن القوم سيقبلون ؟ .. وهل يقبل القس ؟ »

- « أعتقد أنه لا ضرر فى هذا .. »

فى هذه المرة كان دورى كى لا أبدى حماساً ..

ونجحت فى إقناع الطبيب المذعور بتجاهل الأمر ..

* * *

لكن الأقاويل تتزايد ..

والحكايات المخيفة تكثر ..

ولاحظت أن الجزء الشمالى من القرية هو موطن كل هذه القصص ، وخاصة ما يحيط منها بالكهف القديم الذى كان أهل القرية يتجنبونه بشكل خاص دون سبب واضح ..

ويقع - ككل الكهوف - عند قاعدة تل حجرى صغير ..

ما هو سرّ هذا الكهف ؟

لقد كان هناك منذ وجدت القرية ، وسيظل بعدها ..

وهو كهف لا يميزه أى شىء خاص .. فهو كهف كأى كهف آخر .. فم فاغر أسود تدخله وتخرج منه الوطاويط ..

وللأمانة لم تكن هناك أية أساطير حول هذا الكهف ، ولم يقل أحد إن الشياطين تكمن فيه أو إن الأطفال الذين يلعبون جواره يختفون .. لا شىء من هذا ..

ولم يكن صالحًا لاختباء الناس أو للهو الأطفال ، لأن رائحة عفنة مقيتة تخرج منه باستمرار كأنه مجرور .. لهذا لم يكن يثير اهتمام أحد .. ومن دخلوه لم يجدوا فيه ما يستحق العودة ..

لكن الأقاويل تكثر ..

وبالتدريج صارت القرية تنقسم إلى قريتين :

القرية الأولى جنوبية تجلس جوار المدفأة ليلاً .. وترتجف .. وتتحدث عن أمور مريبة تحدث فى القرية الثانية ..

القرية الثانية شمالية خاوية على عروشها ملأى بأشخاص أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ، وكفوا عن مزاولة أعمالهم ، ولا يعلم سوى الله من أين يطعمون ويشربون .. وكلهم مصاب بهذا الشحوب ..



صحيح أننا كنا نراهم أحيانًا أو نزورهم ، لكنهم قد فقدوا كل رغبة فى العلاقات الودية معنا ..

كأنهم صاروا آخرين ..

ولم يكن في كل هذا ما يمكن إخبار السلطات به .. أو إخبار مكتب الصحة .. فمن حق الناس جميعًا ألا يكونوا ودودين ..

لم تحدث حالات وفاة أخرى .. ولم نسمع عن أحداث عنيفة كالتى حدثت مع ( مازورسكو ) لهذا لم يكن هناك ما يقال ..

إن الأمر شبيه بأن تبدى رأيك فى رواية لم ترق لك .. لكنها جيدة من حيث الأسلوب واللغة والحبكة والشخصيات .. عندها يتقلص وجهك وتقول فى عسر :

ـ « لكن شيئًا ما ليس على ما يُرام .. شيئًا ما غير موجود .. هل تفهمون ما أعنيه ؟ »

كان ذلك حين قررت أن أرسل خطابًا إلى مجلة نسائية أعلنت أنها تحقق فى الأمور الغامضة غير السياسية .. إنها مجلة يرأس تحريرها صحفى بدأ يلمع اسمه ( جوستاف نيكولسكو ) .. فى ( رومانيا )

فقط ـ على ما أعلم ـ يمكن لذكر أن يرأس تحرير مجلة نسائية .. وهذه من الأعاجيب التى أتحدث عنها ..

لم أقل كثيرًا فى خطابى ، ولم أثرثر أكثر من اللازم ، كما لم أتوقع لحظة استجابة من المجلة .. بل إننى نسيت الأمر كله ..

حتى فوجئت بزيارة رجلين قادمين من ( بوخارست ) .. وكان هذا فى منتصف أكتوبر ..

★ ★ ★



ـ ٤ ـ

كانت سيارة ( زاباروجيتس ) فاخرة جدًا .. خرج منها رجل فى منتصف العمر أنيق جدًا ، فخيم المظهر ، يدخن السيجار ، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه ، وكان يحمل حقيبة جلدية فاخرة ..

أما الآخر فكان نحيلاً أصلع الرأس ، يشبه القلم الرصاص ذا الممحاة ، لو أن الأقلام الرصاص تضع العوينات ..

قال الرجل الأنيق وهو يصافحنى فى تواضع :

ـ « مرحبًا .. لا بد أنك د.( يوليان بودسكو ) .. »

ـ « أنا هو .. »

فالتفت إلى القلم الرصاص ذى الممحاة ليقول بالإنجليزية :

ـ « قلت لك إننى لم أخطئ العنوان .. »

هنا فهمت سرّ مظهره الغريب .. إن القلم الرصاص أجنبى .. ولكن من أية جنسية بحق السماء ؟ هاتان العينان الجاحظتان تقولان إنه ليس آسيويًا .. لكن بشرته أقل سوادًا من الأفارقة .. وشفتاه أكثر غلظة من الأوروبيين .. أتراه من المريخ ؟ »

صافحنى الرجلان .. وقال الأول :

ـ « أنا ( جوستاف نيكولسكو ) .. »

شخصيًا ؟! غريب هذا ! رئيس التحرير آت بنفسه لدراسة الموقف ؟ كنت سأجد الأمر طبيعيًا لو أرسل لى صحفيًا تحت التمرين أو صحفية متحمسة ..

أردف وهو يقدم القلم الرصاص ذا الممحاة لى :

ـ « وهذا هو البروفسور ( إسماعيل ) من ( مصر ) .. »

مصرى ؟ غريب .. إنه لا يشبه المصريين كذلك ..

ـ « هل وصلتك برقيتى ؟ »

ـ « للأسف إن خدمة البرق هنا ..... »

ـ « أفهم .. أفهم .. لا عليك .. هل يوجد مكان للإقامة هنا ؟ »

ضربت أخماسًا فى أسداس .. وقلت حائرًا :

ـ « الواقع لا .. إن دارى صالحة على كل حال .. »

تبادل النظرات مع صديقه .. كأنه يقول له ( هؤلاء الفلاحون ! ) ..

لكن صديقه كان يتابع الحديث بتلك العيون الزجاجية المميزة لمن لا يفهم اللغة التى يتم بها الحوار ..



لهذا عاد يترجم له بالإنجليزية ما قيل .. ولم يبد القلم الرصاص سعيدًا بهذا ..

لكنهما جاءا دارى على كل حال .. وهى دار لا بأس بها أعتقد أنها أحسن دار فى القرية ..

تناولنا طعام الغداء ، وعرفتهما زوجتى ، وكنا حريصين على أن يدور الحديث بالإنجليزية حتى يفهمنا الطبيب المصرى الذى عرفت أن له باعًا ما فى علوم الميتافيزيقا .. ويبدو أن له شهرة عالمية ما ..

وحكيت لهما القصة كاملة ..

ثم استرخيت فى مقعدى منتظرًا آراءهما ..

* * *

# حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه



ـ ١ ـ

قال د.( رفعت ) :

كان ( بودسكو ) بدينًا جدًا .. ربما أقرب للبقال الإيطالى كما نراه فى الأفلام .. وبصعوبة يمكنك أن ترى عينًا أو اثنتين ، أو فمًا يتحرك وسط طبقات الشحم والعرق التى تغلفه .. كأنما عيناه وفمه ثقوب فى كتلة من الزبد .. إنه المعجزة الحيّة فى البقاء حيًّا برغم كل هذا الدهن ..

كان يتكلم بانجليزية رديئة ممزوجة بالرومانية .. لكن كلامه كان مفهومًا .. وإن كنت أتوقع فى كل ثانية أن يسقط ميتًا ..

ولنا حكى ما أثار ريبته فى قريته هذه .. ثم طلب منا الرأى ..

قلت فى كياسة :

ـ « لا يمكن إبداء الرأى مالم نر أحد هؤلاء الشاحبين .. »

قال وهو يهزّ رأسه فى إصرار :

ـ « مستحيل .. إنهم لا يقابلون أحدًا .. »

- « تعنى أنهم لا يتسوقون ، ولا يأتون لشراء ( الأسبرين ) منك ؟ »

- « إن لهم مجتمعهم الخاص كما قلت لك .. »

تبادلت و ( جوستاف ) النظرات .. وقلت :

- « كأنه دين جديد .. دين ينفصل أتباعه عن المجتمع .. »

- « دين الشاحبين إذا راق لك التعبير .. »

هنا قال ( جوستاف ) وهو يشعل سيجاره :

- « دكتور ( بودسكو ) .. نحن قوم عمليون نرغب الانتهاء من هذه القضية سريعًا .. لهذا يجب أن نرتب أمورنا على أساسين : الأول هو زيارة ذلك الجزء المعزول من القرية .. الثانى هو رؤية جثث من لقوا حتفهم وترتيب تشريحها تحت مظلة علمية أكثر كفاءة .. »

قال ( بودسكو ) بصوت كالفحيح :

- « لن ترى أحدًا على الإطلاق .. كلهم فى بيوتهم ولا يخرجون .. فقط حين يجىء المساء تسمع ضوضاء قادمة من هناك .. وبالطبع يخشى الجميع هاهنا تبين الأمر .. إن البقاء فى الدار ليلاً جوار النار ليس فكرة رديئة جدًا كما ترون .. »



فتح ( جوستاف ) حقيبته الجلدية الأنيقة ، وأخرج كاميرا صغيرة ثم أعلن أنه يريد البدء بالتقاط صورتين للصيدلى ..

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء .. فهو ككل شخص آخر يسرّه أن يظهر وجهه البدين فى الصحف ، ولعل الحظ يسعده فيراه ( شاوشيسكو ) ..

قال ( جوستاف ) بعد ما انتهى :

- « هل نذهب الآن لرؤية القطاع الشمالى من القرية ؟ »

نهض الصيدلى معلنًا أنه موافق .. فلا يوجد ما يخشاه هناك فى فترة الصباح والظهيرة ..

ونهضت أنا شاعرًا بأنه من السخف أن أخاف شيئًا لا يخافه هذا الصيدلى المذعور كأرنب ..

★ ★ ★

راحت السيارة تشق شوارع ( هالماجيو ) الضيقة المرصوفة بالحجارة .. شمس العصر تغمر كل شىء بقيظها الذى يداعب فى عينيك رغبة القيلولة .. والحرّ شديد برغم أنه أكتوبر ..

الديار كلها مغلقة ولا أحد بالخارج .. لا طفل يلهو ..

لا كلب يبحث بأنفه فى القمامة .. لا عجوز ينتظر فى متجره مشتريًا لا يجىء ..

الحق أنها كانت قرية الأشباح ..

راح ( جوستاف ) يجوب الطرق بسيارته بسرعة جنونية .. يخرج من هذا إلى ذاك ، ويعود من ذاك إلى هذا ..

لا شىء .. خواء ..

وأخيرًا رأى فتحة الكهف الفاغرة إياها ، عند قاعدة تلّ متوسط الارتفاع .. وكان من الطبيعى أن يتوقف بالسيارة هناك ..

كانت الأرض منحدرة للوراء فجذب فرملة اليد محدثًا صوت ( كريك ك ك ! ) الذى بدا غريبًا وسط هذا السكون ..

ورحنا نرمق الكهف فى فضول ..

كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

وعلى جانبى الفتحة كانت هناك كتابات بالطبشور ، وقلوب متشابكة .. إلى آخر هذا الهراء ..

تساءل ( جوستاف ) :





كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

- « ما هذا الكهف ؟ »
قال الصيدلى مفسرًا كل شىء :
- « هذا كهف .. »
- « أعلم .. لكن ماذا تعرف عنه ؟ »
قلت أنا فى ملل من اعتاد هذه الأمور :
- « القصة المعروفة .. ثمة شىء ما يعيش بداخله .. لهذا يهاب الناس الدنو منه ، ويرسمون علامة الصليب كلما رأوه .. والسرّ وراء ما يحدث فى القرية موجود بين هذه الأحجار .. »
هزّ الصيدلى رأسه البدين عدة مرات ، وقال :
- « بالعكس .. لا توجد خرافات من أى نوع تحيط بهذا الكهف .. »
كانت الرائحة الخارجة من الكهف عطنة جدًا ، وأبدى ( جوستاف ) ملاحظة بهذا المعنى .. فقال الصيدلى :
- « هذا حق .. وهو سبب وجيه ، ينفّر الشباب من الدخول فيه .. إن الوطاويط لا تجيد أعمال النظافة كما هو واضح .. »
قلت :



- « إنها ليست رائحة كريهة فحسب .. بل هى رائحة شيطانية .. »
ثم نظرت إلى ( جوستاف ) متسائلاً :
- « من الواضح أننا سندخل .. هل نفعل ذلك الآن ؟ »
- « لا بحق السماء .. لا بد من إعدادات .. لا بد من مسدسات وحبال وكشّاف .. أنت تعرف هذه الكهوف .. »
- « إذن ماذا سنفعل الآن ؟ »
- « نجرب قرع الأبواب .. »
قالها وهو يغادر سيارته ..

★ ★ ★

قرعنا الباب عدة مرات لكن أحدًا لم يردّ ..
على حين وقفت أنا على بعد خطوات أرمق نافذة الطابق الأول .. قد لا يفتح أحد الباب ، لكنه حتمًا سيتلصص علينا من عل ..
وكنت محقًا .. فقد رأيت وجه امرأة عجوز ذات شعر أشيب ترمقنى من وراء زجاج النافذة .. ولوهلة التقت عينانا ، ثم رأيتها تغيب داخل الحجرة المظلمة ..
عاد ( جوستاف ) يضرب الباب مرارًا .. ثم إنه سأل الصيدلى :

ـ « منزل من هذا ؟ »

ـ « منزل ( ماريا كالسكا ) .. أم الفتاة التى لقيت حتفها .. »

ـ « إذن دعنا نجرب بابًا آخر .. »

واتجهنا فى صمت ـ وشمس العصر تحرق عيوننا ، ولا شىء سوى صوت لهاثنا ـ إلى باب مجاور .. فواصلنا قرع الباب ..

قال الصيدلى باسمًا :

ـ « لا جدوى هناك .. أنا فعلت هذا قبلك مرارًا .. »

هتف ( جوستاف ) فى جنون :

ـ « لكن لا بد من وسيلة لإرغامهم على فتح الباب .. قوة من الشرطة على سبيل المثال أو ..... »

ـ « لا يوجد خطأ قانونى فى أن يأبى المرء فتح بابه .. »

لكن ـ قبل أن يرد ( جوستاف ) ـ كان الباب قد انفتح ..

وسمعنا من يدعونا إلى الدخول ..

★ ★ ★



ـ ٢ ـ

كانت الرائحة العطنة تزكم أنوفنا .. لكننا دخلنا .. وفى الداخل كان الظلام دامسًا ..

احتجنا إلى بعض الوقت حتى تتكيف شبكيات عيوننا ، وحتى تتخلص من مئات الشموس الملونة التى راحت تطبعها على كل شىء ..

أخيرًا رأينا أسرة من ثلاثة أفراد تجلس على منضدة فى الظلام ، وكان هناك شبح طويل القامة يعود ليتخذ لنفسه مقعدًا .. فعلمت أن هذا هو من فتح لنا الباب ..

ـ « ماذا تبغى يا ( يوليان ) ؟ »

قالها الشبح الطويل بصوت مبحوح .. طبعًا لم أفهم ما قال ، لكن ( جوستاف ) هو من ترجم لى الحوار بعد ذلك ..

كانوا فى الظلام فلم أستطع رؤية وجوههم .. لكنى لم أحبّ كثيرًا تلك الظلال المميزة لهم .. كما أننى لم أحبّ ذلك الصوت المتحشرج ..

سأنقل لك المحادثة كما ترجمها لى ( جوستاف ) فيما بعد ..

قال ( بوليان ) :

- « ( ميخائيل ) .. ماذا دهاكم جميعًا ؟ هل أصابكم الجنون ؟ »

قال ( ميخائيل ) الذى عرفت أنه الشبح :

- « لم يحدث ما يدعو لحيرتك يا صديقى .. أنت ترانا بخير .. »

- « بل صرتم فى عالم آخر غير عالمنا .. »

- « ليس حبّ الانعزال جريمة .. »

- « ربما كان مرضًا .. »

قال ( ميخائيل ) وهو ينهض ..

- « أنا أحبك أيا ( بوليان ) .. ولهذا أنصحك كل النصح ألا تفتش عن الحقيقة كثيرًا .. فالحقيقة أكبر منا جميعًا .. وأنصحك كذلك ألا تأتى ها هنا ليلاً .. »

تلفت ( بوليان ) حوله بحثًا عن شخص غير موجود .. وتساءل :

- « أين ( إيزبيا ) ؟ »

قال ( ميخائيل ) بنفس الصوت :



- « ( إيزبيا ) ماتت يا ( بوليان ) .. منذ شهر .. »

كان هذا حين علمنا - فيما بعد - أن ( إيزبيا ) هى زوجة الرجل .. ويبدو لسبب ما أن الخبر كان غير معقول ، لأن ( بوليان ) راح يردد فى هستيريا وذهول :

- « ماتت ! ( إيزبيا ) ماتت ؟ وكيف لم نعلم ؟ »

- « إن الموت يحدث .. ولا يجدى إخفاؤه أو إعلانه .. »

- « وأين دفنتموها إن لم يكن فى الكنيسة ؟ »

- « قلت لك يا ( بوليان ) إننا لم نعد ننتمى لكم .. ليس مأكلنا مأكلم ولا مشربنا مشربكم ، ولا ديننا دينكم ، ولا قبورنا قبوركم ! »

هنا تدخل ( جوستاف ) فى هذه المحادثة الرومانسية الشائقة ، التى لا أفهم منها حرفًا سوى الإيماءات والنظرات ..

قال ( جوستاف ) :

- « ليس هذا سهلاً فى دولة مثل ( رومانيا ) .. لا أحد يستطيع أن ينفصل عن المجتمع مكونًا مجتمعًا جديدًا .. إن مخالب السلطة فى كل مكان وداخل كل

شق فى الصخور .. حتى الجثث فى قبورها خاضعة للرفيق ( شاوشسكو ) .. »

سمعت لفظة ( شاوشسكو ) ففهمت أن فى الأمر تهديدًا ما ..

قال ( ميخائيل ) :

ـ « حتى رفيقك (شاوشسكو ) لن يستطيع الوصول إلينا الآن .. فنحن فى عالم آخر بعيد عن كل ما تخافونه .. »

ثم أشار إلى الباب إشارة صامتة ..

قال ( يوليان ) وهو ينهض :

ـ « أخشى يا ( ميخائيل ) أننا مضطرون لإبلاغ السلطات فى ( بوكوفينا ) .. وليس هذا ضد حق الجيرة بل هو معه .. »

وفى صمت مشينا إلى الباب وسط الظلام ..

صوت أخشاب الأرضية يئن تحت أقدامنا ..

ولحسن الحظ لم يفعل أحدهم ما كنت أخشى أن يفعلوه .

مثل ماذا ؟

مثل قتلنا طبعًا !

* * *



فى دار الصيدلى ؛ تناولنا طعام العشاء ..

كانت على الحائط ساعة عتيقة من العصر الباليوزى ، من التى تجلب الأشباح وتوشك دقاتها على إيقاظ الموتى .. بينما كانت هناك فوق رف المدفأة أيقونة للسيدة العذراء .. وصليب كبير جدًا .. وبضع صور للمرحومة خالة والدته ..

وكانت الزوجة بدينة جدًا كزوجها .. لكنها صموت تبتسم فى تحفظ طيلة الوقت .. وكان طهيها رديئًا على عكس كل البدينين الذين يجيدون الطهى غالبًا ..

إن الطعام الرومانى جيد وقريب جدًا من طعامنا .. الأمر الذى يؤكد لك أن طهيها كان سيئًا حقًا ..

قال ( جوستاف ) وهو يجرع ما بقى فى كأسه :

ـ « بعد العشاء سنعود إلى الشاحبين ! »

كان هذا كافيًا كى يتوقف الطعام فى حلقى .. ورحت أسعل فناولنى لكمة بين لوحىّ كتفى وكوبًا من الماء .. ثم قال :

ـ « هذا هو الحل الوحيد كى نكمل مهمتنا التعسة .. نحن نعرف أن شيئًا مريبًا يحدث ليلاً .. ما هو ؟ »

قال الصيدلى وهو ينزع المنشفة من عنقه :

- « فى هذه الحالة أنا لن ألحق بكم .. آسف .. »

- « هذا حقك يا صديقى .. لكننا فى حاجة إلى بعض الأشياء .. »

ثم راح يعدّ على أصابع يديه :

- « أولاً : نحتاج إلى كشاف .. ثانيًا : نحتاج إلى حبل .. ثالثًا ...... »

هتف الصيدلى غير مصدق :

- « أنت لن تدخل الكهف الآن ! »

- « لم لا ؟ سنحاول لو وجدنا فرصة ما .. ثالثًا نحتاج إلى سلاح .. إن معى مسدسى .. »

قلت أنا دون حماس :

- « مسدسى معى أيضًا .. »

- « هذا رائع .. هيا بنا .. »

طبعًا حاول الصيدلى إقناعنا لكننا - أعنى ( جوستاف ) - لم نبد على استعداد للين .. ولكم تمنيت لو أن هذا الرجل يملك القدرة على الإقناع !

غريب أمر ( جوستاف ) !

لقد عرفته دومًا شخصية ذكية ، لكنها أقرب إلى الخفة والافتقار إلى الصرامة .. لكن ترقيه فى المناصب



والسن جعله شخصية كاسحة تتعذر مقاومتها .. وصار أكثر شجاعة وحزمًا ..

إن الشخصية لكيان غير مفهوم .. هل حقًا ذلك القائد الهمام هو ذات المتردد بطىء الفهم الذى عشت معه قصة المذءوب إياها ؟

وجلب لنا الصيدلى ما طلبنا ، وتمنى لنا حظًا سعيدًا ، ورجانا ألا نتهور أكثر من اللازم .. فلا أحد يعرف على وجه اليقين ما يمكن أن نجده .. ولم تكن لدىّ أية نية للتهور على كل حال ..

وفى العاشرة مساءً انطلقنا إلى الجزء المعزول ..

* * *

- ٣ -

- « الآن نترجّل .. »

قالها ( جوستاف ) وهو يوقف محرك السيارة ..

لم تكن لدىّ نية من أى نوع لمغادرة السيارة .. فهى تبدو كبيت آمن دافئ ، والليل قد صار أبرد .. والظلام صار أكثف ..

- « هل لا بد من تركها ؟ »

قال فى غيظ :

- « هل تمزح ؟ هدير محرك سيارة وكشافاتها وسط هذا السكون والظلام ؟ إن الموتى سيغادرون قبورهم مذعورين »

وغادرنا السيارة ؛ بعد ما أوقفها ( جوستاف ) فى زقاق مظلم من أزقة القرية المتشابهة كلها والمرصوفة - دائمًا - بحجر الإسكافى ..

- « هل الحبل معك ؟ »

- « وهل الكشاف معك ؟ »

- « إذن نحن مستعدان .. »



وانسللنا صامتين كاللصوص عبر الأزقة ، لا نهتدى إلا بضوء خافت من آن لآخر لمصباح باهت فى طريقنا ..

لكن صوت الصخب كان يخبرنا أننا لم نضلّ الطريق ..

* * *

أى مشهد رهيب رأيناه !

كنا ندنو من النيران الملتهبة التى أشعلوها فى وسط الشارع .. والتى تعلو إلى عنان السماء ، والتى يمارسون حولها نشاطًا لا أدرى كنهه .. يتخلله صخب غير معتاد ..

وهمس لى ( جوستاف ) :

- « لا تدنُ .. تعالَ نتوارَ .. »

ووجدنا وراءنا بيتًا بابه موارب .. واضح أن صاحبه قد غادره متعجلاً كى يلحق بهذا الاحتفال ..

ولم نتردد .. دخلنا الباب إلى الداخل المظلم عطن الرائحة .. أين شممت هذه الرائحة من قبل ؟ آه .. فى الكهف طبعًا ..

كانت هناك درجات سلم متآكلة تقود إلى طابق ثان .. ومن هناك تغدو الرؤية أفضل ..

صعدنا فى الدرج الذى لم يكن يحدث صريرًا ..

ومن النافذة كان وهج النار يغمر القاعة بضوء ذهبى رقراق ؛ يسمح لألف خاطرة مروعة بأن تولد ..

نظرت إلى الوراء فى ذعر وتحسست مسدسى ..

لا أحب كثيرًا أن أجد صاحب الدار يقف وراءنا فجأة ..

متى سيعود ؟ هل سنشعر به ؟

ثم كتمت خواطرى ودنوت من النافذة ، ورحت و( جوستاف ) نرمق المشهد راكعين على ركبتينا ..

كان المشهد عامة يوحى بطقوس ما ..

للدقة أكثر كان يوحى بطقوس الخصوبة كالتى يذكرها من رأوا فيلم ( رجل الخيزران ) .. هذا الجو الهمجى الوثنى الذى يجمد الدم فى العروق ..

كانوا يدورون دون كلال حول النار المشتعلة فى وسط الشارع .. نار مضرمة فى ما تيسر لهم من أخشاب وإطارات قديمة ..

رجال ونساء كلهم شاحبو الوجوه إلى حد يذكرك بحرباء مذعورة .. وقد اكتسبت وجوههم المتألقة فى النيران طابعًا مرعبًا يوشك أن يكون سينمائيًا ..

وفى السماء ترددت الأهازيج التى يترنمون بها ..



- « ماذا يقولون يا ( جوستاف ) ؟ »

- « لا أفهم حرفًا .. »

لا يفهم حرفًا مما يغنون .. لكنهم يغنونه بحماس ..

وأدركت من موقعى أن ثمة ما ليس على ما يرام فى مظهرهم ..

الشحوب ؟ لا .. لا .. شىء آخر ..

من هذه المسافة البعيدة وبرغم وهن بصرى أرى شيئًا ما خطأ ..

إن وجوههم متآكلة مهترئة .. وأنوف بعضهم بدأت تتساقط .. هل الجذام ؟ لا .. لا يبدو الجذام هكذا ..

وسرت قشعريرة فى عمودى الفقرى ..

إن هؤلاء القوم يتحولون إلى مسوخ ..

* * *

وتذكرت مشهدًا مماثلاً لهذا فى ( جامايكا ) .. منذ أعوام طويلة .. سحرة ( الفودو ) كانوا ملتفين حول شاب ، يقومون بتحويله إلى ( زومبى ) .. ( كوديكا ) .. ( كوديكا ) ..

رباه ! إننى أسترجع ذات الشعور المقيت بكل تفاصيله ..

ويسقط القلم من يدى ..

★ ★ ★

ولم يكن الشاب الذى يلتفون حوله مقيدًا إلى عمود هذه المرة .. كان معلقًا من قدميه كالذبيحة .. وأدركت أنه حىّ .. وأنه مذعور .. وأنه يتلوى محاولاً الفرار حاسبًا - ذلك الأحمق - أن مجرّد الإصرار كاف لقطع حبل غليظ كهذا ..

همس ( جوستاف ) :

- « بحق السماء ! من هذا ؟ »

- « إنه القربان الدموى لهذا الحفل الوثنى .. هذا واضح .. »

آه لو لم يكن ذلك الشعور الجهنمى بأن هناك من يراقبنى !

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - يراك ويسمعك الآن ..

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - يعرف أنك هنا ..

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - لا يعرف معنى الأعذار ..

★ ★ ★



كانوا يتصرفون فى سلاسة ويسر كأنهم فعلوا ذات الشىء مرارًا ..

أولاً : دار عليهم من يحمل صينية عليها عدد كبير من الكئوس الزجاجية الفارغة .. فأخذ كل واحد كأسًا ..

ثانيًا : دنت امرأة عجوز شعرها أشيب - لا أستبعد أنها من كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

ثالثًا : بالمدية أحدثت جرحًا فى عنق الشاب المعلق ..

رابعًا : راح كل منهم يدنو بالكأس ليفعمه من الدم المتساقط .. كانوا يقومون بهذا وهم يتحركون على شكل دائرة .. كل يملأ كأسه مرة .. ويجرعه مرة واحدة .. ثم يتحرك فى الدائرة بينما يتلوه آخر ..

إن الإنسان يحوى خمسة لترات من الدم .. والكأس يسع مائة سنتيمتر مكعب .. أى أن هناك دمًا يكفى لملء خمسين كأسًا .. ولما كان عددهم يقرب من الثلاثين ؛ فقد قدرت أن ثلثيهم - من سعداء الحظ - سيملئون الكأس مرتين ..

حسبة صغيرة كانت نتيجتها أننى تحسست جيبى ، حتى وجدت زجاجة أقراص ( النيتروجلسرين ) فدسست واحدًا تحت لسانى ..



دنت امراة عجوز شعرها اشيب - لا استبعد انها من كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

أما ( جوستاف ) فقد تصلب كتمثال ( أياح حتب ) .. لحظات ثم سمعت الـ ( أوع ) المميزة المألوفة .. بعض الناس لا يملكون قلوبًا واهنة ، لكن لهم معدة أوهن ..

وحين استعاد قدرته على الكلام هتف :

- « ( رفعت ) ! إنهم غيلان ! »

* * *

- ٤ -

هو - الذى يمشى فى الظلال - سيعود وينتصر ..

★ ★ ★

لماذا يفعلون ذلك ؟

إن كثيرين يصابون بفقر الدم .. لكن شرب الدمّ لم يكن يومًا من الأساليب المحببة لعلاج هذا المرض ..

إنه احتفال قائم على تصفية دماء هذا الشاب ثم شربها .. وهو - بحق - أسلوب غير معتاد .. لعل امتصاص الدماء أكثر احترامًا واتفاقًا مع التقاليد ..

أما ما حدث بعد ذلك فكان غير معتاد بدوره ..

لقد أسكرتهم الدماء ! تحولوا إلى مجموعة من السكارى المعتوهين يتطوحون يمينًا ويسارًا ويحدثون صخبًا .. وبعضهم راح يرقص رقصة خرقاء غير متسقة .. أو يقوم بحركات بهلوانية لا معنى لها ..

قال ( جوستاف ) غير مصدق :

- « بل هم مجانين كذلك ! »

- « أظن أن هذا أمر مفروغ منه .. »

ومن جديد عاودنى الشعور السابق بأننى مُراقَب ..



نظرت إلى الوراء .. لم تكن الحجرة مظلمة تمامًا بفضل ضوء اللهب .. ولم يكن هناك ما يخيف سوى قطع الأثاث القديمة ..

لكنى شعرت بتلك الغريزة الملحة تقول لى : اهرب ! اهرب ، كأن الجحيم يطاردك !

قلت لها : كفى سخفًا .. فأنت تجعلين منى جبانًا ..

قالت فى نفاد صبر : وهل كذبت عليك من قبل ؟!

الحق أن لا .. وهكذا قلت لـ ( جوستاف ) :

- « أعتقد أن الوقت قد حان للفرار .. »

- « لكننا لم نفهم شيئًا ولم ندخل الكهف .. »

- « لا أظن أنهم سيعطوننا فرصة لمحاولة هذا .. لو أردنا العودة فليكن هذا صباحًا ومع آخرين .. »

فكّر قليلاً ثم رأى أن الصواب هو ما قلته .. قال وهو يبتعد عن النافذة :

- « لا بأس .. من يدرى ؟ لربما عدنا بقوات من الجيش .. فهذا المكان يستحق الحرق بقنبلة ذرية .. »

ولاهثين ككلبين فى يوم حارّ ؛ رحنا نهبط فى الدرج قاصدين الباب الخارجى .. ومدّ ( جوستاف ) يده ليفتحه ..

لقد تأخرنا أكثر من اللازم ..

ليتنا فعلناها منذ دقيقتين أو أكثر ..

كان صاحب الدار عائدًا إلى داره لغرض ما ..

وحين فتح الباب ورأى وجهينا اتسعت عيناه ذهولاً ..

وسمعته يقول شيئًا ما بصوت كالفحيح ..

* * *



- ٥ -

كانت ملامحه واضحة بصعوبة فى الضوء الخافت ، لكنى - بطريقة ما - كنت أرى عينيه تلمعان فى الظلام كجمرتين ..

وأدركت - والقشعريرة تغمر جسدى - أن هذا المخلوق يرى فى الظلام بشكل جيد جدًا ..

ولم يكن أمامنا وقت للتردد أو البحث عن حلّ أمثل .. حياتنا تتوقف على العنف ولا شيء سواه ..

وهكذا - فى اللحظة ذاتها - ركلت الرجل فى أسفل بطنه .. بينما هوى ( جوستاف ) بيده المتشابكتين على مؤخرة رأسه .. وحين تداعى الرجل للأرض ركله ( جوستاف ) بين أضلعه بحذائه الفاخر الغليظ ..

مددت يدى إلى قداحتى فأشعلتها وقربتها من وجه الرجل ، لأتبين ملامحه حيث تمدد على الأرض فاقد الوعى ..

وهمست :

- « رباه ! إنه لا ينتمى للبشر ! »

وهمس ( جوستاف ) :

- « مسخ ! »

كانت أذناه متآكلتين وأنفه مجدوعًا .. أما بشرته الشاحبة كهذه الورقة فكانت ملأى بالقروح .. ومن بين شفتيه سال خيط من الدماء .. ليست دماءه طبعًا ..

لكنه - ولله الحمد - لم يكن ذا أنياب ..

- « هل هو مجذوم ؟ »

سألنى ( جوستاف ) وهو يرتجف ..

قلت وأنا أطفئ نور القداحة كى يذهب هذا المسخ بعيدًا :

- « لقد رأيت مجذومين كثيرين فى حياتى .. ويمكننى أن أؤكد أن هذا لا يمت لهم بصلة .. »

وفتحت الباب أكثر كى يتيح لنا الخروج ، ورفعت قدمى لأعبر فوق الجثة .. حين ... إن هذه الأشياء تحدث دائمًا فى هذه المواقف ..

لقد شعرت بيدين من حديد تتشبثان بكاحلى ..

ثم تحررت يد منهما كى تمسك بكاحل ( جوستاف ) .

لقد أفاقت ضحيتنا وتشبثت بساقينا كمصايد الدببة ..

وسرعان ما تعثرتُ وسقطتُ على الأرض ، بينما راح ( جوستاف ) يواصل الركل محاولاً ألا يفقد توازنه ..



لكن الرجل الساقط على الأرض كان قويًا أو منحه الغضب قوة .. وقد راح يمسك بنا وهو يطلق صرخات عاتية كأنه عربة إسعاف مصابة بسرطان الحنجرة ..

اخرس .. عليك اللعنة ! اخرس !

لو كانا رجلين سوانا أنا و ( جوستاف ) - طبيب وصحافى - لعرفا كيف يخرسان هذا المستغيث .. لكننا لم نجد حلاً أو منعنا الرعب من إيجاد حل ..

وإن هى إلا لحظات حتى انفتح الباب تمامًا ..

ولمحنا فى الظلام - لأن اللهب كان وراءهم - عشرة وجوه على الأقل من وجوه هؤلاء القوم ..

كان بعضهم يحمل العصا .. وبعضهم يلوح بسكين هائلة .. واثنان كانا يمسكان بمنجل من هذا الذى لا تراه إلا فى يد الموت على ورقة ( التاروت ) إياها ..

مدّ ( جوستاف ) يده إلى مسدسه وشهره فى وجوههم وهو يرطن بالرومانية مهددًا بالتأكيد ..

قلت له وأنا أنهض من عثرتى ، وقد تراخت قبضة الرجل :

- « لا يا ( جوستاف ) .. لا ! لن تنال منهم سوى

اثنين أو ثلاثة ثم يمزقنا الباقون إربًا .. لا يبدو أنهم يخافون شيئًا .. »

قال أحدهم شيئًا ما ، ثم دخل إلى المنزل المظلم .. وكما توقعت تمامًا انتزع المسدس من يد ( جوستاف ) دون أن يتردد لحظة ..

لا أدرى متى ولا كيف أخرجونا من المنزل ..

كانوا يهددوننا بأسلحتهم الفطرية ، وهم يقتادوننا إلى النيران التى تزداد تأججًا ..

ووجدت نفسي واقفًا على بعد أمتار من الجثة المتدلية ، التى كفت عن الاحتضار منذ دقائق ..

كنت أتمنى أن أمتع القارئ أكثر ، فأقول إنهم مزقونا إربًا أو ألقوا بنا فى النار .. لكنى مازلت حيًا أحكى هذه الأسطر .. إذن لم أمت لكنى دنوت من ذلك جدًا للأسف ..

وكما أقول دائمًا فى قصصى : ليس المهم ما حدث .. المهم كيف حدث ؟

ماذا كنت أقول الآن ؟

آه ! وجدنا نفسينا نقف جوار النيران ، بينما هؤلاء القوم يحيطون بنا .. وفى ضوء اللهب أدركت أن ظاهرة التآكل عامة ..



إن قرية ( هالماجيو ) تمرّ بأشنع تحول مسخى يمكن وصفه ..

ونظرت إلى ( جوستاف ) الذى وقف محتفظًا بوقاره .. وقد راح يتكلم معهم بالرومانية .. على الأقل هم لم يفقدوا فهمهم للغة بعد ..

إن لغة الإيماءات والنظرات تفسر ستين بالمائة من هذه المحاورة :

- « من أنتما أيها الدخيلان ؟ كيف تعديتما على حفلنا الدينى ؟

- أنا صحافى من ( بوخارست ) ولى اتصالات مهمة .. وثقوا أن ( السكيوريتاتيا ) لن تتركنى دون بحث محموم عنى ..

- هاها ! لا أحد يعرف أنكما هنا .. ونحن لم نعد تحت سيطرة أحد ..

ثم تدخل رجل تعرفت صوته المبحوح دون جهد .. إنه ( ميخائيل ) زوج ( إيزبيا ) الذى كنا عنده صباحًا ..

لغة الإيماءات والنظرات : ألم أقل لكم أن تتركونا وشأننا ؟

- هل تعرفهما يا ( ميخائيل ) ؟

ـ إنهما كانا فى القرية صباحًا مع الصيدلى ( بوليان ) ..

هنا التفت لى ( جوستاف ) وبدأ يترجم ما قيل ..

قلت له فى نفاد صبر :

ـ « دعك من هذا .. كل هذا مفهوم .. ماذا ينوون عمله معنا ؟ »

ـ « لم يتفقوا بعد .. ظننتك فهمت هذا أيضًا .. »

ثم همس فى خطورة :

ـ « إنهم لا ينادون بعضهم بالأسماء العادية .. بل يستعملون ألفاظًا ونعوتًا مثل ( شيطان الظلام ) و( زهرة القبور ) و( نهر النار ) .. بل إنهم يسمون القرية كلها باسم ( إنفرنوس ) »

( إنفرنوس ) هو الاسم اللاتينى للجحيم .. وهو مألوف لمن قرأ ( الكوميديا الإلهية ) للإيطالى ( دانتى ) ..

دنت المرأة العجوز التى لا أستبعد أن تكون لعبت المساكة يومًا مع ( خفرع ) .. وكانت تحمل فى يدها كتابًا سميكًا مهترئ الصفحات لكن له هيئة كتب الصلوات ، وعلى غلافة لمحت الرمز العتيد ، الصليب المقلوب .. إذن فالأمر هكذا ..



ورأيتها ترفع يدها اليسرى التى تشقق جلدها وتآكل .. قبضة مضمومة يبرز أول وآخر إصبع منها .. وهو الرمز العتيد الآخر الذى أعوذ بالله من تفسيره .. قبضة الإلحاد ..

كانت تتكلم وتتكلم بصوت رفيع جهورى .. وأدركت أنها الكاهنة العظمى فى هذا المجتمع الغريب ..

قال ( جوستاف ) متابعًا كلامها جملة فجملة :

ـ « إنها تقول إننا مرغمان على الانضمام إلى هذا المجتمع ، والتخلص من خطايانا للأبد .. إنها تسمى نفسها ( الروح الكبرى ) ، وتقول إننا سنغدو أخوين من إخوة الدم فى هذا الجمع .. لا توجد فرصة للخيار ؛ لأن هناك سبيلاً واحدًا هو الموت .. تقول إن ( المعلم الأكبر ) قادم عن قريب .. عندها يندم الخطاة الذين لم يقاوموا كبرياءهم .. والذين تقلصت وجوههم اشمئزازًا عندما لمس كأس الدمِ شفاههم ، والذين أفرغوا أمعاءهم عندما طلب منهم التهام الفئران ! »

واضح أن ( جوستاف ) مترجم ممتاز ..

واضح أنه لم يختلق أية عبارة من خياله ..



ورايتها ترفع يدها اليسرى التى تشقق جلدها وتاكل .. قبضة مضمومة يبرز اول واخر إصبع منها ..

تأكدت من هذا حين قدموا لى الكأس المترع بالدم .. وحين رأيت الدعوة فى عيونهم .. وحين سمعت ( جوستاف ) يقول :

- « إنهم ينتظرون منك أن تشرب !! »



# حكاية الروح الكبرى

تحكيها هى نفسها

- ١ -

قالت ( ماريا كالسكا ) :

لم يعد من حقى أن أسترجع الماضى .. أو أذكر نفسى باسمى القديم قبل أن أنال كهنوت الدم ؛ لكنى مضطرة لذلك ما دمت بصدد سرد القصة منذ بدايتها ..

* * *

هو - الذى يمشى فى الظلال - يعلم أننى أقول هذا مرغمة ..

هو .. المعلم الأكبر .. خريولسن .. كل هذا يعنى الشىء ذاته .. وهو قد سمح لى بالكلام .. لهذا أتكلم ..

* * *

قبل الرؤيا كنت أمًا لطفلين ، وأرملة فى الخمسين من عمرى .. صحيح أننى أبدو فى الثمانين لكل من يرانى ، لكن ما ذنبى ؟ لقد تضافرت على شبابى نوائب الزمن وخطوبه ، وتركت كل نائبة جرحًا لا يزول على وجهى .. حتى قيل إن خارطة الطرق فى ( رومانيا ) مرسومة على ملامحى بدقة مذهلة !

أورثوذكسية متدينة ، أقرأ فى الإنجليل كل ليلة ، وأشعل الشموع فى الكنيسة ، وأبكى أمام تمثال ( مريم ) العذراء .. كان هذا قبل الرؤيا طبعًا .. وقبل أن يتخذ منى هو - الذى يمشى فى الظلال - كاهنته العظمى ..

كان لى طفلان جميلان .. ( إيرينا ) المراهقة الحسناء ، التى يحلم بها نصف شباب القرية ، ويتمناها النصف الآخر .. و( فالستا ) الطفلة التى ستكون ( إيرينا ) يومًا ما ..

رباه ! يا لها من حياة !

تربية طفلين دون دخل تقريبًا .. الفقر .. الفقر .. كلما ازددت فقرًا ، كلما ازددت انحناءً ، وازداد وجهى تجعدًا ، وخلا فمى من أية أسنان ..

* * *

والآن نقف جوار النيران نرمق المتطفلين ..

كانا رجلين من ( بوخارست ) .. أحدهما تبدو عليه أمارات الثراء والثقة بالنفس .. أما الآخر فهو أوسم مخلوق وقعت عيناى عليه .. إنه نحيل يضع العوينات مما يعطيه سمتًا مهذبًا متحضرًا .. وأصلع الرأس ،



وأنا أحب صلع الرأس فى الرجال لأنه يوحى بالنضج والنظافة ..

لم يعد سنى ولا منصبى يسمحان بالوقوع فى الحبِّ .. لكنى لو فعلت لكان هذا المصرى الجميل أول من أختار ..

نعم هو مصرى .. صاحبه قال إنه طبيب مصرى .. وقال عن نفسه إنه صحافى كبير من ( بوخارست ) ..

لا يهم هذا .. نحن لم نعد تنبهر بالمناصب الدنيوية ..

إنهما سينضمان إلى الشاحبين الآن ما داما قد جاءا .. غير مجبرين ، غير مخدوعين ، غير مغرر بهما ..

« بكامل إرادتهما الحرة جاءا » كما يقول مصاصو الدماء ..

* * *

هو - الذى يمشى فى الظلال - اختارنى ذات ليلة ..

* * *

لم تكن لى أية علاقة بالموضوع حتى شهر ( مايو ) الماضى ..

كنت أقضى وقتى فى تخليل البصل ، وصنع السلال بغرض بيعها .. كما أننى كنت أخيط ثياب الأعراس مقابل أجر ..

وكانت ( إيرينا ) تساعدنى تارة وتتهرّب منى تارة .. من العسير أن تقنع فتاة مراهقة بأن مسئولية البيت تمنعها من المرح ، وزيارة أترابها ، واللعب فى المرج وصيد اليعاسيب ، أو قطف الزهور كى تدسها خلف أذنها كما تفعل بنات ( هاواى ) فى الصور ..

الحق أن ( إيرينا ) كانت بارعة الحسن .. والفتاة المراهقة قد تكون عسيرة فى تربيتها ، لكن المراهقة الحسناء مستحيلة ..

كنت بحاجة إلى رجل بجانبى .. رجل له عينان ينبعث الشرر منهما ، وله ( شخطة ) ترتج لها جدران المنزل وقلب ( إيرينا ) ..

ولم يكن هناك رجل يصلح سوى ( بيلاسكو ) ..

( بيلاسكو ) جارى الذى توفيت زوجته منذ عام .. وهو مدرس فى مدرسة القرية .. أصلع الرأس نحيل .. أى أنه فتى الأحلام .. ومن الطبيعى جدًا أن يطلب يدى .. فهو أرمل وأنا أرملة .. وبيتانا متلاصقان .. ولديه ولد ولدىّ ابنتان ..

لكن الأحمق لم يبد قط أية رغبة للزواج من أى نوع .. فقط كان يتردد على الدار مساءً ليجلس ويثرثر ويشرب بعض ( الروم ) ، ثم يقول :



- « إن الحياة لقاسية يا ( إيرما كالسكا ) .. كل هذه الوحدة .. »

ويسكب ما بقى من القدح فى حلقه .. وينهض .. فقط لاحظت فى الآونة الأخيرة أنه يزداد شحوبًا ..

كان يجىء دارى ليلاً .. وفى كل ليلة كان يبدو أقرب إلى لون الليمونة الناضجة أكثر فأكثر ..

سألته فى ذات ليلة .. وأنا أرشف من شراب عطر الرائحة أهداه لى :

- « هل أنت مريض يا ( بيلاسكو ) ؟

بدت عليه الحيرة .. ثم سألنى عن السبب .. قلت وأنا أعيد الكوب لموضعه :

- « يقولون إنك لم تعد تغادر دارك .. لم تعد تغادر غرفتك .. ثم هذا الشحوب .. وهذه الرائحة .. بحق ( مريم ) العذراء أشعر كأنك تتعفن حيًا ! »

قال وهو يهزّ رأسه كمن يطرد خاطرة ما :

- « لا شىء من هذا يا ( إيرما ) .. إنها الوحدة لا أكثر .. أحوالى سيئة وأشعر بأننى لست على ما يرام .. أنت تعرفين أن الصحة والنظافة مرادفان للسعادة .. الاكتئاب يجعل المرء شاحبًا قليل الاستحمام .. »

ورأيت الدمع فى عينيه فربتّ على كتفه ..

كان يرتجف .. ورفع عينيه نحوى .. وهمس :

ـ « هل الفتاتان هنا ؟ »

ـ « هما عند خالتهما هذا المساء .. »

وقبل أن أفهم ما يحدث أنشب أسنانه فى ساعدى !

كان هذا آخر ما توقعت .. وأطلقت صرخة هائلة ، لكنه كان قد أطبق على الساعد فى عنف .. وسالت الدماء و ...

ملحوظة د.( رفعت ) : نظرًا لأننى أكره العنف فقد حذفت وصف هذا المشهد الدموى ـ الذى يستغرق صفحة من حديث المرأة ـ وأكتفى بالقول بأن ( بيلاسكو ) امتصّ دماء ( إيرما ) بالكامل .. وأنها فى البداية قاومت بعنف ، ثم لم تعد تجد الأمر سيئًا إلى هذا الحدّ .. كان يقودها إلى نوع من الخدر اللذيذ .. كأنها تخطو إلى النوم بعد يوم من العناء ..

تقول ( إيرما كالسكا ) :

ـ « حين غبت عن الوعى كان صوت ( بيلاسكو ) الرخيم يتردد فى ذهنى ، يقول ضاغطًا على مقاطعه :



ـ « أنت لن تموتى أى ( إيرما كالسكا ) .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها ستلفظين خطايا الماضى .. »

وحين صحوت من نومى عرفت أننى صرت منهم ..

★ ★ ★

يا للنور ! يا للضوضاء !

أنا لم أعد منكم يا حمقى .. إننى أقرب إلى شاعر مرهف الحس يبغى نظم قصيدة ؛ لكن الغوغاء لا يريدون تركه فى حاله ..

كانوا يقرعون الباب علىّ طيلة اليوم .. يتساءلون .. يضيئون الأنوار .. يتأملون وجهى ..

لكنى كنت أصرخ فيهم غاضبة .. دعونى وشأنى .. أريد الجلوس فى الظلام المقدس حتى يأتى الوعد ..

وكانوا يقدمون لى طعامًا رديئًا جدًا .. لكنى كنت قد وصلت إلى حقيقة لم أسغها قط من قبل : إن لحم الفئران وخشاش الأرض ليسا بهذا السوء ..

لم يأت ( بيلاسكو ) قط ليرانى ..

لكنى كنت أسمع صوته طيلة الوقت فى ذهنى :

ـ « هو ـ الذى يمشى فى الظلال ـ ينتظر .. ينتظر حتى نغدو كثيرين ونسود .. عندئذ نتحرك .. وعندها يغدو المجد لنا .. أما الآن فلنبق حذرين منطوين نتحين الفرص .. »

كانت ( إيرينا ) تزورنى وتسألنى فى لهفة :

ـ « أماه .. ماذا دهاك ؟ »

لكنى كنت أبعدها عنى فى غلظة ..

وقد جلبت لى فى يوم من الأيام علبة من أقراص الحديد ؛ ابتاعتها من الصيدلى المخبول ( بوليان ) ، لكنى لم أمسسها .. ليس فقر الدم هو ما أعانيه .. إنه الجوع للدم ذاته !

نعم .. كنت ظامئة للدم .. ولم يكن ما ذقته منه كافيًا فى الهوام التى أنجح فى الظفر بها ، ولم أجرؤ قط على أن أطلب من ( إيرينا ) ذبح خنزير وجلب دمه لى ..

كنت أتعذب .. وأتمزق ، لكنى تحاملت على نفسى أيامًا طويلة ..

وكنت أعرف ما سيحدث .. لهذا أرسلت ( فالمتا )



لتقيم عند خالتها .. وحاولت إقناع ( إيرينا ) البلهاء لكنها أصرّت على أن تظل معى ، وأن تنفق على ( اللايات ) المعدودة التى حصلت عليها من خالتها ..

وفى النهاية كان الظمأ قد بلغ بى أعتى مبلغ ..

لهذا .. شربت دماء ( إيرينا ) ..

* * *

حسن .. ثمة رجل يُدعى ( ميكيافللى ) ـ ويبدو أنه روسى(*) ـ حكى لى القس عنه يومًا ما .. يبدو أنه قال ( الغاية تبرر الوسيلة ) .. ولم أفهم معنى العبارة لكن القس قال لى إن المقصود بها : لو كانت أهدافك معقولة فمن الممكن أن تفعل أى شىء ..

حسن .. أنا لم أعد أطيق القس ولا الكنيسة .. لكنى أعترف له بأنه ثقفنى كثيرًا .. وكانت هذه العبارة هى التبرير الذى وجدته حين أنشبت أسنانى فى عنق ( إيرينا ) فى غرفتى المظلمة ..

---

(*) ميكيافللى إيطالى .. لكننا لا نطالب مصاصة الدماء العجوز بأن تكون مثقفة !



وفى النهاية كان الظما قد بلغ بى اعتى مبلغ .. لهذا .. شربت دماء (إيرينا) ..

أنا أتحرك نحو هدف أسمى .. تحـول مذهـل .. تحول تهون معه التضحيات الصغـرى ، وعاطفـة مثل عاطفة الأمومة .. وثمة حيوانات تلتهم صغارها حين تجوع .. ما دام ذلك فى اتجاه التقدم الطبيعى ..

لكن ( إيرينا ) ماتت !

ماتت حقًا ، ولم تمرّ بالغفوة التى مررت أنا بهـا .. لم تصحُ ثانية حقًا .. وأمضيت ساعات طويلة أصفعها محاولـة جعلها تنهض .. ثم سمعت صوتـه ( هـو ) يقول لى :

- « أنت قد تسرعت أيتها الرّوح الكبرى »

تساءلت فى ذهول وأنا أحتضن طفلتى :

- « روح كبرى ؟ من ؟ »

- « الروح الكبرى هى أنتِ .. لن تكون هناك من تدعى ( إيرما كالسكا ) بعد الآن .. بل أنت كاهنتنا العظمى .. وقد تسرعت كثيرًا .. »

- « كـ .. كيف تسرعت ؟ »

- « كان عليك أن تحقنيها بالإكسير قبل مصّ دمها .. والآن لم يعد من الممكن أن تعود للحياة أو

تغدو منا .. لا تجزعى ! فقط عليك أن تتخلصى من جثتها .. »

- « و .. ولماذا أغدو الكاهنة العظمى ؟ »

- « لأنك قمت بالتضحية العظمى .. ابنتك ! »

- « و .. مـ .. من أنت ؟ »

- « أنا (هو) .. هو الذى يمشى فى الظلال .. »

* * *



## - ٢ -

لم يكن عسيرًا أن أجرّ جثة ( إيرينا ) إلى غابة الصنوبر وأتركها هناك .. لحظة ضعف عابرة هزتنى وأنا أتذكر كيف كانت طفلتى تهوى اللعب فى هذه الغابة .. ثم تماسكت وعدت إلى دارى تحت جناح الظلام ..

وحين وجدوها جاءنى المأمور يخبرنى بمأساتى ..

كان هذا عند الظهر .. وأنا لا أطيق رؤية ضوء النهار ، لكنى سمعت قرعاتهم على الباب ، وصوت رجاله ينادون اسمى العتيق ..

تحاملت على نفسى وفتحت الباب .. ثم جعلتهم يدخلون إلى الدار المظلمة ، لا يكادون يبصرون بعد ضوء الظهيرة الساطع ..

وسمعت من يقول ملحوظة ما عن رائحة البيت الكريهة .. الروائح ! إنهم ما زالوا يلاحظون الروائح .. أما أنا فأعتقد أن حاسة الشمّ لدىّ لم تعد متعلقة إلا بالدم .. هناك دم أم لا ..

قال المأمور :

- « منذ متى اختفت ( إيرينا ) يا ( إيرما ) ؟ »

قلت وأنا أقف فى الظلام :

- « منذ أسبوع أيها ( القوميسير ) .. »

- « ولماذا لم تخبرينا ؟ »

- « لأنها تشاجرت معى وأعلنت أنها لن تعود .. مسألة عاطفية من سخافات المراهقة إياها .. ولكن لماذا تسأل ؟ »

تنهّد وفى تردد قال :

- « لأننا وجدنا جثتها فى غابة الصنوبر صباح اليوم ! »

الآن صار علىّ أن أصرخ وأولول ..

أصرخ وأمزق شعرى وألطم خدىّ ..

ياه ! لقد كان كل هذا مملاً .. لكنى قمت به باعتباره من ضرورات مهمتى .. ويبدو أن أدائى كان رائعًا لأنهم راحوا يواسوننى ويقدمون لى أقداح الماء ..

وكان من السهل بعد هذا أن أتظاهر بأن قدمىّ قد شلتا .. كان علىّ أن أفعل هذا إذا أردت ألا أذهب للكنيسة لحضور تأبين ( إيرينا ) .. الحق أننى لم أعد أحتمل دور العبادة كلها ..



جاءت خالة ( إيرينا ) كى ترعانى .. وخالة ( إيرينا ) هى أختى طبعًا .. لكنى لم أكف عن اعتبارها امرأة متطفلة ما ..

امرأة عجوز ثقيلة الظلّ تصرّ على مضايقتى ، وتثرثر طيلة الوقت ، وتسألنى عن صحتى مائة مرة فى الساعة ..

كنت أعاملها بغلظة .. لكنها كانت تمصمص بشفتيها طيلة الوقت ، ولا تكف عن الإشفاق علىّ ..

والأسوأ أنها راحت تنظف الدار .. وتصرّ على أن تدخلها الشمس وأن تتخلص من رائحتها التى تقول إنها كريهة ..

حسن .. كان لا بد أن تذهب ..

★ ★ ★

وحين كنت أخلو لنفسى كان ( هو ) يزورنى ليملى علىّ كتابه الخاص به .. كتابه الذى سيقتدى به أتباعه جميعًا ..

وكنت أدوّن كل حرف فى ورقة ، حتى اجتمعت لدىّ ثلاثمائة ورقة قمت بتجليدها فى كتاب ، ورسمت

عليه الصليب .. لكن لا ككل صليب .. بل هو صليب مقلوب .. لا أدرى السبب .. لكنى وجدت نفسى مرغمة على رسمه .. وأطلقت على الكتاب اسم ( إنفرنوس ) ..

تسألون عن محتوى الكتاب ؟

إن هذا يثير الفضول .. لكنى غير مخولة بأن أذكر منه حرفًا لأمثالكم من الخطاة الفانين .. ليس من حق غير الشاحبين أن يعرفوا أسرار ( هو ) العظمى ..

أكتفى فقط بذكر ( الإكسير ) .. والذى يُصنع من أوراق نبات الـ ( وولف بين ) .. وهو نبات له باع طويل فى السحر ، ويقول الفلاحون دومًا إن رائحته تخلق المذءوبين ..

يبدو أن كثيرين سواى يعلمون سرّه ، ومن بينهم ( بيلاسكو ) نفسه .. وهذا الإكسير هو الذى يمنع من تمتص دماءه من أن يهلك .. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا حين مصصت دماء ( إيرينا ) ..

أحيانًا أشعر براحة لأننى لم أكن أعرف .. فهى على الأقل تنعم براحتها الأبدية الآن فى عناية إله رحيم ..



لو كنت أعرف لصارت مثلى .. خادمة لـ ( هو ) .. وأحيانًا أندم .. فقد فقدَ مجتمعنا فردًا .. وفردًا مهمًا ..

المهم أننى تحايلت على خالة ( إيرينا ) حتى سقيتها كأسًا كاملة من الإكسير ، ثم فعلت معها ما فعله ( بيلاسكو ) معى ..

وكان المنظر غير مسبوق ..

فى البدء تهاوت جثتها الشاحبة الخالية من الدماء أمامى .. بعد جهد عنيف كلفنى نابًا من أنيابى .. آخرها فى الواقع ..

ثم رأيتها تتكلم بصوت مبحوح ..

ورأيت عينيها ترمقانى فى ثبات ..

قلت لها الكلمات الشهيرة :

ـ « أنت لن تموتى .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها تلفظين خطايا الماضى .. »

ثم همست فى أذنها :

ـ « ( هو ) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ يريدك .. »

ومن ليلتها صارت الصديق الوحيد الذى يؤنس وحدتى ..

لكن عددنا ازداد بعد حين ..

صارت كل البيوت المجاورة منّا ..

وصرنا أقوى .. وامتلكنا الجرأة كى نجهر بحقيقتنا ..

* * *



# حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال ( بيلاسكو ) :

( هو ) - الذى يمشى فى الظلال - أمرنى أن أضمَّ ( إيرما كالسكا ) أو ابنتها ..

★ ★ ★

الحق أننى كنت ميالاً إلى تذوق دماء الفتاة .. فهى دماء غضة شابة ربما تبعث الحياة فى وجودى المحتضر ..

لكن ما باليد حيلة .. ومن العسير أن تجد كل ما تريد ..

★ ★ ★

أنا مدرس فى مدرسة القرية .. أرمل منذ فترة قصيرة .. ولى ابن فى السادسة عشرة من عمره .. اسمه ( كوثار ) ..

إن الحياة تمضى فى القرى على غرار ( هالماجيو ) بشكل رتيب جدًا .. لا شىء يحدث .. يمكنك أن تعرف أن الأمور ستمضى على هذا المنوال بعد عامين أو عشرة .. يمكنك أن تحدس من سيتزوج مَنْ من



المراهقين الذين تراهم فى كل مكان .. يمكنك أن تخمن أول الموتى فى الفترة القادمة ..

الحياة - حقًا - رتيبة فى ( هالماجيو ) ..

لكننا منذ شهرين عرفنا الإثارة الحقيقية ..

فبعد أن تغرب الشمس يبدأ المرح ، وينتشر إخوة الدم فى الشوارع يرقصون ويصخبون .. ونشعل النار العظمى التى تضىء لنا كل شىء .. ويغادر إخواننا بيوتهم بعد يوم طويل قضوه ينتظرون فى الظلام تلك اللحظات ..

هو ذا ( إستبان ) وهذا ( بوريس ) وتلك ( هيلدا ) .. أو تلك هى أسماؤهم القديمة قبل أن يصيروا ( شيطان الظلام ) و( نهر النار ) و( زهرة القبور ) .. أنا صار اسمى ( الدم ) وهو اسم جميل حقًا ..

- « كيف حالك يا ( نهر النار ) ؟ »

- « أسوأ من حالك يا ( دم ) .. »

وفى هذا المجتمع صار لكل منا زوجة ..

أنا زوج ( إليصابات ) التى صار اسمها ( حدأة الصحراء ) .. صحيح أننا لا نرى بعضنا إلا ليلاً .. لكن تفاهمنا تامّ ..

ويسرني هنا أن أقول إن ( حدأة الصحراء ) تنتظر أول مولود في مجتمعنا الجديد .. أول طفل يولد شاحبًا .. وقد دنا الموعد جدًا ..

حول النار نحتشد ونتلو عبارات الخضوع لـ ( هو ) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ الذى نرتقب خروجه من الكهف متى بلغ عددنا رقمًا معينًا ..

ما هو هذا الرقم المبارك ؟

لا أحد يعرف .. ربما كان ستين أو سبعين أو مائة .. وربما تتم هذه المعجزة اليوم بالذات ..

لقد دأبنا على زيادة عددنا .. كلما وجدنا متطفلاً من جنوب القرية عندنا .. كنا نقبض عليه ، ونرغمه على أن يكون منّا ..

متطفل اليوم هو الشاب ( أنطونيسكو ) ابن القصّاب .. يبدو أنه قد تسلل ليلاً ليرى ما يحدث عندنا .. وكان يحمل خنجرًا ومشعلاً .. أنا أعرف أنه يحبّ ( إيرينا لاسكى ) ولم يستطع أن يتفهم موتها قط ..

لكنه كان أحمق بما يكفى لأنه رأى ابنى ( الكابوس ) ـ أعنى ( كوشار ) سابقًا ـ وحسب أن الشباب يفهم الشباب أكثر من سواه .. حاول أن يكلمه .. ناداه ..



وكان ( الكابوس ) حويطًا بما يكفى .. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه فى الكلام .. ثم على حين غرة أمسك معصميه بكلتا يديه ، وأطلق صرخة طويلة ـ صرختنا ـ فهرع الإخوة من كل حدب وصوب ، وأحاطوا بالفتى بعصيهم ومداهم ..

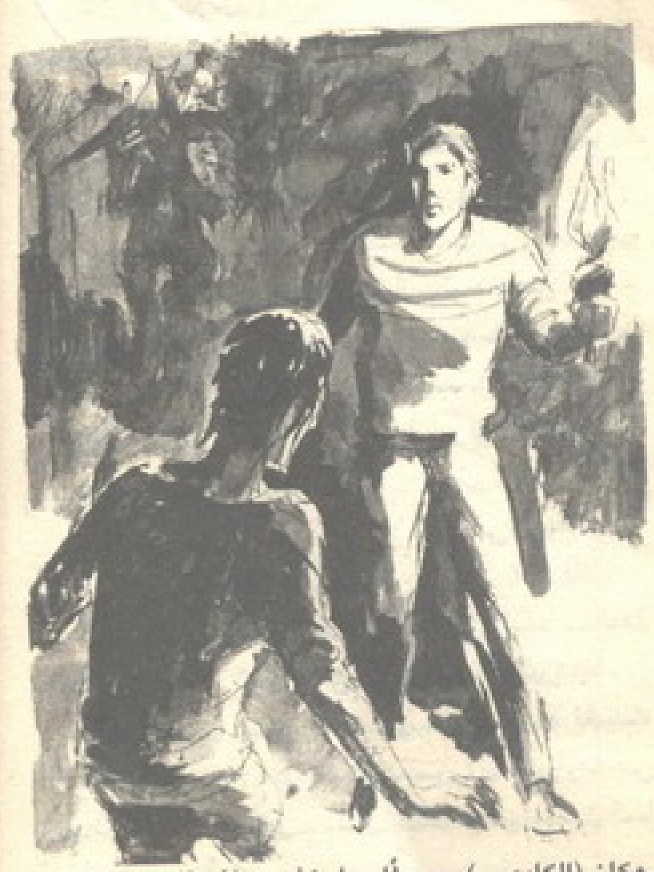
وكان الباقى معروفًا .. ربطنا قدميه وعلقناه فى شجرة .. نسيت أن أقول إننا أرغمناه على شرب الإكسير .. كان يصرخ ويحاول أن يبصق ما انصبّ فى فمه لكن الإعياء غلبه فجرع بضع جرعات ..

وحين علقناه من قدميه كما فى أوراق ( التاروت ) لم يفهم المراد منه ..

دنت كاهنتنا وأحدثت الجرح إياه فى وريد عنقه الودجى ..

ثم رحنا نتناوب ملء الكئوس من الدم .. الدم الأحمر الفائر .. الذى يكفى لإطفاء ظمأ ثلاثين منا ..

إن الدم سائل ساحر حقًا .. كوب واحد يجدّد نشاطك لمدة يومين .. ولا يوجد كوب من أى مشروب فى العالم له هذا التأثير .. لكن الحظ كان يحمل لنا مفاجآت باسمة أكثر ..



وكان (الكابوس) حويطًا بما يكفى .. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه فى الكلام ..

لقد وجدنا غريبين متطفلين فى دار ( الدماء السوداء ) .. لقد تمكن من القبض عليهما وحده بإرادة جديرة به ..

وكان أحدهما يتكلم الرومانية وهو صحفى مكتنز فاخر المظهر من ( بوخارست ) ، وأنا أمقت أهل ( بوخارست ) لأنهم يعتبروننا نحن الفلاحين حمقى ..

أما الآخر فلا أجد له وصفًا سوى أنه يشبه دودة ( الإسكارس ) فى كتب التاريخ الطبيعى التى أشرحها للتلاميذ .. ويبدو أنه أجنبى ..

كانا مذعورين يحاولان تفسير الموقف ، ويبدو أن الصحفى كان يحاول تخويفنا بمنصبه وصلاته .. لكن الشيوعيين لن يرهبونا .. لا هم ولا الرأسماليون ولا أية قوة أخرى ..

عندما نقرر المعاملة اللائقة بهذين سيبدأ المرح الحقيقى ..

اقترح أحد الواقفين أن نستنزف دماءهما حالاً .. وأنا أمقت ضيق الأفق بشكل غير عادى .. إن التكرار مقيت دائمًا ..

لقد فرغنا من استنزاف دم ( أنطونيسكو ) ..

وهو ذا قد بدأ يتحرك وهو متدلٍّ من الحبل .. وقد بدت عليه أولى علامات الصحة : لم يعد الوضع المقلوب يضايقه .. إنه قد اكتسب طبيعة الوطاويط التى تقضى حياتها مقلوبة دون ضيق .. ثم إن جسده لم يعد يحوى دماء تتجمع فى رأسه وتشعره بالاختناق والاحتقان ..

أقول إن ( أنطونيسكو ) قد صار منا ، ولشدَّ ما أثارت صحوته الهلع فى نفسى ضيفينا .. لقد أثار موته الذعر فى نفسيهما .. لكن صحوته جعلتهما يوشكان على الموت بدورهما ..

لم يعد هناك داعٍ لاستنزاف آخر هذه الليلة ..

إن ضيفينا سيجدان كثيرًا من المرح فى الكهف ..

* * *



## - ٢ -

كان ( كوثار ) - أو ( الكابوس ) - هو من قادنى إلى إخوة الدم ..

فى البدء كان مراهقًا عاديًا يضحك من قلبه ويغنى ويتشاجر ويحبّ ، ثم بدأ التحول المعهود : صار شاحبًا .. وصار يفضل الجلوس وحيدًا فى الظلام ، وحوله تلك الرائحة العطنة التى صارت شعارنا ..

وقد حسبته فى البدء مصابًا بخلل نفسى من هذا الذى يعترى المراهقين ، وأفضيت بمخاوفى لد. ( ميخائيل ) الذى جاء وفحصه برغمه .. وأعلن أنه مريض جدًا .. وكتب لى قائمة طويلة من المستحضرات العلاجية التى تُشرب أو تُبلع أو تُدهن أو تُمصّ أو تُشمّ أو تُحقَن ..

لكن ( كوثار ) - لم يكن قد صار ( الكابوس ) وقتها - غضب جدًا علىّ بعد انصراف الطبيب .. وقال لى إن كل هذا شأن من شئونه ، وهددنى لو جعلت الأمر أكثر ذيوعًا بأن يقتلنى ..

الحق أننا لم نعتد ( قلة الأدب ) الأمريكية هذه فى ريف ( رومانيا ) ..

ربما سمح الآخرون لأنفسهم بذلك ؛ لكن الأمر يختلف هاهنا .. إن الابن الوقح يُصفع ، وربما يُطرد لو أراد الأب ..

وهكذا ضربته ضربًا لا بأس به .. وحبسته فى غرفته ، وهو ليس عقابًا حقيقيًا بالنسبة له ، هو الذى يقضى عشرين ساعة يوميًا وحده فى حجرته ..

وفى المساء دخلت حجرته ، حيث كان جالسًا فى الظلام لا يفعل أى شىء فى الواقع ..

جلست جواره وقلت له بصوت أبوى هادئ :

ـ « ها نحن ذان معًا .. صديقان يتساران .. قل لى ما يضايقك .. »

قال لى وهو يخرج قنينة من جيب سترته :

ـ « كل ما هنالك هو أننى لا أشعر بأننى بخير .. صدقنى .. هذا هو كل شىء .. لم أعد أتحمل أية ضوضاء من أى نوع .. »

وقرب القنينة من فمه وأردف :

ـ « ولا الضوء .. ربما هى مسألة أعصاب كما تعلم .. »



صحت وأنا أمسك يده فى عنف :

ـ « وهذا ؟ هل هو خمر ؟ هل تشرب يا ( كوثار ) ؟ »

هزّ رأسه وابتسم .. لمحت بسمته فى الضوء الخافت وقال :

ـ « لا يا أبت .. إنه مجرّد منشط طبى .. ثق بى .. »

ورأى نظرة الشك فى عينى ، فقرب القنينة من فمى وقال :

ـ « هلم نقه .. لتكون مطمئنًا .. »

لامست القنينة بشفتى وعيناى لا تفارقان وجهه ..

حقًا لم يكن ما بها خمرًا .. بل هو سائل غير معهود .. عطر الرائحة قليلاً .. له مذاق الزنجبيل لو أضيف له النعناع ..

وكان هذا خطأ .. لقد تركت لقدمىّ أن تنزلقا إلى ذات الشرك ..

ويبدو أنه كان جاثمًا فوق عنقى .. وبصعوبة عرفت أنه يمتص الدماء من وريدى المنتفخ .. وهى عملية مرهقة استغرقت ساعة أو أكثر .. لكنها لم تكن سيئة على الإطلاق ..

فقط سمعته يلهث هامسًا :

- « أنت لن تموت .. ستعيش لتكون من إخوة الدم .. وعندها تلفظ كل خطايا الماضى .. »

ولم أفهم ما يقول وقتها .. لكنى فهمته الآن بعد ما عشت حتى ضممت ستة غيرى إلى إخوة الدم .. وكذلك فهمت عبارته التالية :

- « هو - الذى يمشى فى الظلال - يريدك .. »

★ ★ ★

الحق أنها كانت خبرة غير معتادة ..

نحن فى ( رومانيا ) .. والكلام عن مصاصى الدماء يبدأ منذ أن يكون الطفل فى مهده .. لكن ما حدث لم يكن مصّ دماء كما نعرفه .. كان استنزاف دماء لشربها .. ولم يمت أحدنا غير ثلاثة أيام بعدها يغادر قبره ليمارس مهنته .. ولم نكن خالدين حتمًا لأن أحدنا مات بنوبة قلبية منذ أسابيع .. وإحدانا - كانت تدعى ( إيزبيا ) - ماتت فى أثناء الولادة مع وليدها ..

لكننا - وقد تزايد عددنا تدريجيًا - كنا نعرف أننا نشكل البذرة لنبتة ما .. نبتة عملاقة ..

ما هو الغرض من وجودنا ؟

لا ندرى .. سل أية نبتة عن الغرض من وجودها ، وانتظر أن تجيبك إجابة مقنعة ..



لكن الروح الكبرى - كاهنتنا التى شرفت بضمها - جعلتنا نعرف أن لنا هدفًا واحدًا .. هو أن نكون موجودين حين يخرج هو - الذى يمشى فى الظلال - من الكهف ..

- « عندها سيهدى السلام الكواكب ، ويتوارى كوكب المشترى مع المريخ ، ويصير القمر فى المنزلة السابعة .. »

- « ويكون هذا هو فجر برج الدلو .. »

هذه الكلمات من مسرحية ( شعر ) تعبّر بصدق عن آمالنا ..

آمالنا التى لن نتركها للمتطفلين القادمين من ( بوخارست ) ..

حتى ولو كان أحدهم يشبه دودة ( الإسكارس ) ..

★ ★ ★

# حكاية الطبيب النحيل

## يكملها هو بنفسه

قال د. ( رفعت ) :

كان الكأس أمام شفتى .. ولم أكن أعرف ما سيحدث ، لكنه حتمًا لن يتضمن أن أشرب هذا السائل الكريه .. فليقتلونى إذا أرادوا .. وكل ما أرجوه هو ألا يكونوا غليظى القلب إلى حدّ صبّ هذا الكأس فى فمى عنوة ..

هنا جاءت النجدة فى صورة رجل نحيل أصلع الرأس ، رفع يده فى حزم .. وصاح قائلاً شيئًا ما .. دخلوا فى جدل طويل لم أفهم منه حرفًا .. لكنى كنت أرمق شيئًا معينًا فى اهتمام .. إن الفتى المعلق من قدميه ـ والذى أفرغوا دمه أمامنا ـ يتحرّك !

ابتسامة شيطانية تتلاعب على شفتيه .. ثم يكشر عن أسنانه .. يفتح عينيه .. لحسن حظ ( جوستاف ) أنه لم ير هذه النظرة بالذات ..

إنه حىّ .. حىّ وسعيد .. كأنه ينعم بوضعه الطبيعى المثالى .. ذكرنى بوطواط معلق يهضم ما التهمه من حبات العنب فى رضا ..

سمعت ( جوستاف ) يقول لى :

- « إن هذا الرجل .. »

- « المعلَق ؟ »

- « لا يا أحمق .. أعنى الأصلع .. يقول إنه لا داعى لاستنزاف دمنا الليلة .. وقد اقترح أن يدخلونا الكهف على سبيل المرح ! »

- « الكهف ؟ مرح ؟ »

- « هذا ما قال .. »

- « وما الموجود فى الكهف ؟ »

- « لا أدرى .. لكنه بالتأكيد أسوأ من تعليقنا من الأقدام ، واستنزاف دمنا عن طريق أوردة العنق ! »

أخيرًا بدأ القوم يتحمسون ..

وعرفت أن فكرة الكهف قد راقت للجميع ..

بدءوا يدفعوننا وهم يشكلون دائرة واسعة حولنا ، قاصدين ذلك الكهف السخيف ، عطن الرائحة ..

قال ( جوستاف ) وهو يرمق وجوههم الشاحبة تلتمع فى اللهب :

- « ( رفعت ) .. إن الأمر يبدو كأنهم يقودوننا إلى نوع من القربان الآدمى .. وأنا لا أحب هذا .. »

قلت لاهثًا :



- « أما أنا فأعتقد أنهم يقودوننا إلى مقبرة .. وأنا أكره هذا ! »

كان الكهف ينتظرنا ..

فمه الفاغر المظلم يحمل عشرات الاحتمالات .. وعشرات الإجابات لأسئلة لم نسألها .. ولم نرغب قط فى سؤالها ..

ما الذى ينتظرنا هناك ؟

★ ★ ★

فى الكتيب القادم تسمع حكاية الشاحب الثالث ( كوثار ) .. وتعرف السرّ وراء هذه اللعنة التى اجتاحت ( هالماجيو ) ..

ربما تعرف أيضًا - لو كان هناك وقت - ما حدث لنا داخل الكهف .

د. ( رفعت إسماعيل )

القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب


## أسطورة الناجين

ثمة أشياء غريبة في (هالماجيو) .. أشياء من التي لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلاً .. حينما تتأكد أن الأطفال ناموا .. وتستوثق من أن بابك موصد .. وأن الكلب لا ينبح في الجرن؛ لأنه يشعر بشيء غريب .. إنها قصة عن (هو) - الذي يمشي في الظلال - وإخوة الدم وأعياد الخصوبة .. وكل الخزعبلات التي جاءت كي تبقى ..




د. أحمد خالد توفيق



ص

الثمن في مصر ١٥٠

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة


العدد القادم:

أسطورة دماء دراكيولا